المسيحيّة في نظر
رابندرانات طاغور
و
صلواتُ شاعرٍ

طبعة أولى

٢٠١٥

*

منشورات المكتبة البولسية
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب : ١٢٥
هاتف : ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس : ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف : ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس : ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – شارع سيّدة النجاة – مقابل مطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس : ٠٨/٨١٢٨٠٧

سلسلة
صفحات روحيّة
٦١

المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور

و

صلواتُ شاعرٍ

ترجمها عن الفرنسيّة
أديب مصلح

٢٠١٥

تمهيد

لقد فتنت «عظة الجبل» قلبَ المهاتما غاندي وذهنَه، فجعل من العمل بها نهجًا لحياته، ونبراسًا لنضاله السياسيّ والاجتماعيّ، وأساسًا لمذهبه الروحيّ.

وعلى غراره، أُخِذ مواطنُه وصديقه، شاعر الهند الأكبَر، «رابندرانات طاغور»، بما انطوت عليه تعاليم يسوع من دعوةٍ إلى المحبّة الشاملة، وإلى التضحية في سبيل غوث كلّ محتاجٍ، قريبًا كان أو غريبًا، ومن أجل إنقاذه وخدمته. وبموازاة تعاليم يسوع افتُتِن طاغور بمسيرة المسيح الأرضيّة المدهشة، التي دمغت تعاليمه بمصداقيّةٍ لا سبيل إلى دحضها.

ولا عجب، إذن، إن ضمّت آثار طاغور الثرّة كتيّبًا يحمل عنوان «المسيح»، طواه على أُضمومةٍ من المقالات، وبضع قصائد، عبّر، من خلالها، عن رفيع إكباره ليسوع المسيح ولتعاليمه.

وإن كان لا بدّ – من وجهة نظرٍ لاهوتيّةٍ مسيحيّةٍ – إبداء بعض التحفّظات حول أقوال طاغور في المسيح – الذي يدعوه، مع ذلك، في أماكن عديدةٍ، «الإله يسوع»، ويطلق عليه نعوت «العظيم» و«النفس الكبيرة»، ويجعل من « الحبّ» مرادفًا لاسمه، إلاّ أنّه لا بدّ من الإقرار، بأنّ ذلك الشاعر الهندوسيّ هو، من بين غير المسيحيّين، وحتّى من بين مسيحيّين كُثُرٍ، من ألمع من نفذوا إلى اكتناه أعماق التعاليم المسيحيّة، ولا سيّما المحبّة المتجسّدة في خدمة القريب

والغريب، حتّى إيثاره على الذات، إيثارًا يدفع إلى التألّم عنه من أجل غوثه وإنقاذه، فضلاً عن دعوة المسيحيّة الملحّة إلى نبذ كلّ تفرقةٍ بين البشر، لأيّ سببٍ، وبأيّة ذريعةٍ.

ومع وفاء طاغور للهندوسيّة التي كان يدين بها، وإكباره لما تزخر بها من كنوز الحكمة والخير، لم يتحرّج من إعلان تفوّق المسيحيّة، في جوانب عديدةٍ، ولا سيّما في ميدان المحبّة التي لا تحدّها فروقٌ، ولا تقيّدها شروطٌ، فكان، بذلك، خيرَ قدوةٍ لكلّ باحثٍ صادقٍ عن الحقيقة، والخير، والجمال. وليت مثاله يستقطب ويُلهم كثيرين من جميع المذاهب والمشارب، فيقاسمونه موقفه الكفيل بدرء سيول الكوارث المتدفّقة على عالمنا المبتلى بجنون البغض، والحقد، والعنف، والجشع، والأنانيّة والعنصريّة العمياء.

وطاغور، مع إكباره لتعاليم المسيحيّة، وربّما حرصًا منه على هذه التعاليم، لم يحجم عن التنديد بسلوك بعض المنسوبين، افتئاتًا، إلى المسيحيّة والذين يخونونها ويشوّهونها بتصرّفاتهم المناقضة لها.

ولا مراء أنّ لشهادة ذلك الهندوسيّ الكبير، المنفتح الذهن والقلب، قيمةً جلّى.

في الصفحات اللاحقة ترجمةٌ أمينةٌ لكُتيّب طاغور عن «المسيح»، الذي لم نُغفِل منه سوى بعض استطراداتٍ لا علاقة لها بالمسيح والمسيحيّة.

١ – المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور

١ – حياة المسيح

استفسرتُ، يومًا، أَحد أَتباع ملّة «الباول» (Baûls) (ملّة منشدين دينيّين متسوّلين، في شمال البنغال، يلقبّون بـ «مجانين المطلق»[١]): «هل تتناولون الطعام في كلّ البيوت؟»، فأجابني: «كلاّ!». واستوضحتُه عن السبب، فأَوضح: «إِنّنا لا نأكل لدى من لا يعترفون بنا». فاعترضتُ: «هم لا يعترفون بكم، فلمَ لا تعترفون، أنتم، بهم؟».

تلبّث صامتًا بضع لحظاتٍ، ثمّ أجاب، ببساطةٍ: « هذا صحيحٌ. ثمّة أَمرٌ مبهمٌ حول هذه النقطة».

نحن، في مجتمعنا، لا نهتدي بهذه العقليّة، الداعية إلى التفرقة، والتي تسمح لنا بتناول الطعام في بعض الأماكن دون سواها.

إِنّنا عندما أَقمنا حدودًا مصطنعةً نصبنا حواجز بين أَجزاء العالم، لا بل فعلنا ما هو أسوأ، إِذ أَقصينا من عددناهم أَغرابًا، وأقصَيْنا خلف تخومٍ لا يمكن تخطّيها، جميع العظماء الذين يخصّون العالم أجمع. ورفضنا، بإِصرارٍ، تناول الطعام عندهم، مع أَنّ العناية الإِلهيّة أَوكلت إليهم توزيع الطعام للعالم أَجمع، في حين أَنّنا فصلناهم، وحصرناهم في جنسهم.

وهكذا، احتقرنا، زمنًا طويلاً، نفسًا كبرى تدعى يسوع، ورفضنا استقباله في قلبنا.

ولكنّنا لسنا، في ذلك، المذنبين الوحيدين. فقد تعلّمنا معرفة

---

١ في منطقة البنغال الهنديّة، الشرائع المتعلّقة بالطهارة، هي أَساس الانقسامات الطبقيّة في المجتمع، إذ لا يسمح لأَشخاصٍ منتمين إلى طبقات أو مذاهب وديانات مختلفةٍ المشاركة في وجبات الطعام، ولا حتّى مسّ الطعام المُعدّ بأيدي شخصٍ من طبقةٍ أُخرى، خشية العدوى والنجاسة.

المسيح، بنوعٍ خاصٍّ، من خلال المرسلين المسيحيّين، وكانت طريقتهم في ممارسة مسيحيّتهم هي التي حجبت عنّا المسيح. وهم ما برحوا، حتّى الآن، يحاولون تدمير تقاليدنا الدينيّة، بتعليمهم، فيُكرهوننا على النضال، دفاعًا عن ذاتنا. والإنسان الذي يصارع، يفتقر إلى سداد الرأي. وهكذا أَعمانا اندفاعنا في الصراع، فأفضت بنا إدانتنا للمسيحيّين إلى إدانة المسيح، أَيضًا.

إنّنا نعلم، جميعنا، أَنّ مجتمعنا واجه أزمةً كبرى، مع وصول الثقافة البريطانيّة، فاستحوذت على الشعب فوضى عارمةٌ، ووقع حتّى الأَكثر تمكّنًا من الثقافة في اضطرابٍ، كما لو أَنّ كلّ ممارساتنا النسكيّة لم تكن سوى عبث أولادٍ، وأَنّ بلادنا لم تكن تحمل أَيّ مبدإٍ سامٍ، وأَنّنا لم نهتدِ، قطّ، إلى حقيقة اللّه.

لقد جعلتنا الأَحكام المسبّقة السلبيّة المتعلّقة بتقاليدنا نخجل من ذواتنا. وهكذا، وعندما شرعت تنهار عُمُدُ المجتمع الهندوسيّ، تهاوت حتّى أَوفر العقول ثقافةً في البلاد، واعترتها الحيرة. وعندئذٍ، بعد أَنّ أَوهنتنا الهجمات الخارجيّة، أَحدث المرسلون المسيحيّون اضطرابًا كبيرًا في نفوسنا. وما زال تأثيرهم متجذّرًا بعمقٍ في قلوبنا؛ وإِن كان هذا الخطر آخذًا في الانحسار، شيئًا فشيئًا.

وفي تلك الحقبة العصيبة، حرَّرَنا «رام موهان روي»[1] وبيّن لنا ما نمتلك من كنوزٍ خالداتٍ.

---

١ «رام موهان روي» (١٧٧٤–١٨٣٣)، أَحد روّاد الفكر الهنديّ الحديث. بفضل تمكّنه من عشر لغاتٍ، أَجرى دراساتٍ مقارنةً لكبرى الديانات العالميّة، والمذاهب الفلسفيّة والعلميّة، وأَحدث إِصلاحاتٍ جريئةً تناولت التقاليد الهنديّة الخاطئة، مثل نظام الطبقات الاجتماعيّة، ووأد الأَرامل وحرقهنّ، ساعيًا للعودة إلى الأُصول الصحيحة، مقتبسًا ما هو جيّدٌ في الديانات الأُخرى، متبنّيًا، من المسيحيّة، كرامة الإِنسان، والأَخلاق السامية التي لقّنتها «عظة الجبل»، واعترف أَنّ يسوع هو من عظماء المعلّمين الدينيّين.

الحقيقة تقرع أَبوابنا: يا يسوع أَنت منّا كلّيّةً

لقد حدث لنا شبه صحوةٍ، وأَدركنا أَنّ الحقيقة تقرع بابنا، ولكنّنا لم نفتحه لها، ولم نصغِ لها. دَنونا من مياهها المطهّرة، ولكنّنا لم نقدّم لها الأضاحي. ولذلك، تتفاقم أَخطاؤنا، كلّ يومٍ.

(وهنا يسهب طاغور في نقدٍ وطنيٍّ ذاتيٍّ، ويخلص منه إلى القول):

عندما نتكلّم عن شخص يسوع، نتبيّن أَنّ النفوس الكبرى تحيا في الحقيقة، أَي في عنصر الحياة الأَساسيّ، ببساطةٍ كبرى. وهي لا تدعو إلى طرُقٍ جديدةٍ، ولا إلى شرائع باطلةٍ، ولا إلى آراءٍ غريبةٍ. بل إِنّها جاءت بأَقوالٍ أَصيلةٍ. لقد وُلدت في هذا العالم، لكي تسمّي الأب أَبًا، والأخ أَخًا. جاءت كي تعلن، بقوّةٍ، هذا القول البسيط: ليست محاولة تكديس ما يخصّ القلب، خارجًا عنّا، سوى ضربٍ من المجد الباطل.

إِنّ النفوس الكبيرة تهيب بنا أَن نُبقي قلوبنا يقظةً، وأَن ننظر أَمامنا، ساعين، دائمًا، إلى فهمٍ أَفضل. إِنّها تحثّنا على إِقصاء تقاليدنا العمياء عن عرش الحقيقة.

إِنّها لا تلقّن أَفكارًا غريبةً، بل عندما تحدّق إلينا بنظراتها النيّرة فهي تضيء نفوسنا بنورٍ خالدٍ، يسهم سطوعُه في إِيقاظنا. فيستحوذ علينا الخجل، ونتبيّن أَنّنا سجناء شباك أَوهامنا، وأَنّنا منسوجون بمادّيّةٍ هشّةٍ.

وما الذي نراه، في صحوتنا؟ إِنّنا نرى الإنسان، نرى صورتنا الحقيقيّة. نحن، في كلّ يومٍ، نُغفِل عظمة الإنسان، إِذ إِنّ مئاتٍ من العقبات التي أَقمناها، وأقامها مجتمعنا، قد حَدّتنا، بحيث لم نعد قادرين على رؤية ذواتنا، رؤيةً كاملةً.

إِنّ الذين لم ينحدروا بإلههم، ولم يعبدوا أَصنامًا زائفةً، الذين أَلقوا

في الرغام علامات عبوديّتنا تجاه التقاليد البشريّة، والذين أَكّدوا، بكرامةٍ، أَنّهم أبناء الأبديّة، هؤلاء سموا بالإنسان، وسط البشر. تلك هي الحرّيّة الحقّة. فالحرّيّة ليست فردوسًا، ولا هي متعةٌ، بل هي ازدهارٌ واكتناهٌ لكلّيّ القدرة.

حدّقوا إلى ذاك الذي، على درب الأبديّة الفسيح، جاء كي يدعونا إلى هذه الحرّيّة، ومكث بين ظهرانينا. لا تزدروه، ولا تضربوه، ولا تبرهنوا عن حماقتكم بقولكم له: «أَنت لست منّا!». لا تُلصقوا العار بديننا، بقولكم له: «أَنت لا تنتمي إلى ديانتنا!». تحرّروا من قيود الخرافات الخدّاعة، ورحّبوا به بخشوعٍ وتواضعٍ هاتفين: «أَنت، كلّيًّا، منّا، وبفضلك نحن وجدنا ذاتنا!».

بوركت كلّ حقبةٍ تشهد ولادة عظيمٍ، في أَيّة بقعةٍ من العالم!

في أَيّامنا هذه، يسعنا ملاحظة تأثير الثروة والمجد على فكرنا. فليس بين البشر، من يرتاح إلى رؤية الآخرين أَكبر منه. وبدافع التعطّش إلى الثروات، ينفق المرء عمره، مستجديًا، متحوّلاً إلى عبدٍ وسارقٍ، ولا يعهد لحظة هوادةٍ.

يسوع يبدّد الأَوهام

وُلد يسوع في أَوج عظمة الإمبراطوريّة الرومانيّة، التي لم يكن، آنذاك، لسطوتها وقدراتها أَيّ حدٍّ، والتي كانت محطّ إِدهاش العالم. وكانت شبكات تنظيمها تقرن القوّة بالسلطة السياسيّة.

وفي هذه الحقبة عينها، وفي بقعة تائهةٍ من الإمبراطوريّة، وُلد ذلك الطفل، من أحشاء امرأةٍ يهوديّةٍ فقيرةٍ.

كانت صورة الثراء التي تظهرها الإمبراطوريّة الرومانيّة تنافس، قوّةً وشهرةً، تفوّق كتب الجماعة اليهوديّة المقدّسة، وتقاليدها. وكانت الديانة اليهوديّة وقفًا على ملّة اليهود الزاعمين أنّ اللّه، يهوه، أحبّهم، فخصَّهم بامتيازاتٍ عن سائر الشعوب. وكان يسكنهم شعورٌ بأنّهم متّحدون باللّه من خلال حقائق خاصّةٍ وشرائع مدوّنةٍ في قانونهم، ويؤمنون أنّ تطبيق هذه الشرائع هي تنفيذٌ لوصايا اللّه.

إنّ المفهوم الدينيّ الذي يظلّ دائم الانغلاق على نفسه، محصورًا في حدود الشريعة الجامدة، لا يلبث أن يُصبح ضيِّقًا وقاسيًا. وعلى هذا الفكر اليهوديّ الذي كانت تخنقه قواعد محكمةٌ، حلَّ حدثٌ ووفّر له فرصة حياةٍ جديدةٍ.

آنفًا، كان قد حلَّ، بين اليهود، أنبياء اخترقوا الأسوار الحجريّة، وتقدّموا، بإيمانٍ وطيدٍ، ومتخطّين الحرف الميت الذي تنطوي عليه الكتابات السابقة، أدلوا برسائل خالدةٍ. أشعيا وإرميا، وأنبياء عبرانيّون آخرون، كانوا، في أزمنة الكوارث قد أضاؤوا نورًا، ومن خلال دفق رسائلهم المدوّية دويّ الرعد، النيّرة، الساطعة، المذهلة، محوا جمًّا من الأخطاء التي ارتكبها مواطنوهم، على مدى سنواتٍ من وجودهم المنكفئ على ذاته.

كانت حياة اليهود محكمة التنظيم، بواسطة الكتب المقدّسة ودين الكهنة. مع أنّهم كانوا جنودًا بواسل، كلّما دعا واجب الدفاع عن بلادهم، إلاّ أنّهم لم يبرهنوا على القدر الوافي من الكياسة، فتعرَّض أنبياؤهم لاضطهاد مواطنيهم، فضلاً عن اضطهاد الأوساط السياسيّة.

وانقضت سنواتٌ طويلةٌ، قبل مولد يسوع، لم يظهر فيها أنبياءُ في الجماعة اليهوديّة. وأقلق هذا الفراغ الروحيّ اليهود، فباتوا يلتمسون

من ماضيهم أَسباب أَمانٍ. وأَمست جماعتهم، التي تزداد قوّةً، توصد الأَبواب والنوافذ في وجه كلّ تجديدٍ، وأَشادت، من حولها الأَسوار، رافضةً كلّ تعليمٍ جديدٍ، نابذةً كلّ مبادرةٍ حرَّةٍ تضعُ الطقوس الدينيّة موضع تساؤلٍ وشكٍّ.

ولكن، مع قدرة التمسُّك بالشكليَّات الدينيّة على سحق بذور الروح الكامنة في الإنسان، إلاّ أَنّه يعجز عن ملاشاته كلِّيًّا. فعندما يتنامى شعور الروح بالقمع، ويفشل في العثور على الرجاء في الخارج، فهو، حينئذٍ، يشعر بتفجّر إِيمانٍ في أَعماق ذاته. وقد يكون هذا الصوت جليًّا، وملحًّا.

في تلك الحقبة، كان اليهود يشجّع بعضهم بعضًا، مؤكّدين قدومًا وشيكًا لملكوت الله، زاعمين أَنّ الله ورّث شعبهم مملكةً إِلهيّةً. وكان الشعب اليهوديّ يستشفّ قرب حلول هذا الملك، ويساوره الشعور بواجب التأَهّب لهذه المرحلة المقبلة. ومن ثمَّ، فعندما شرع يوحنّا المعمدان، في الصحراء، يدعو القوم إلى التوبة عن خطاياه، وإلى العماد في مياه الأَردنّ، التفّ الشعب من حوله، ملتمسًا من الله أَن يمحو مذلاّته من العالم، وفي قلب اليهود شرع يولد، من جديدٍ، أَمل الاستيلاء على مملكةٍ أَرضيّةٍ، تضمن لهم السيطرة على جميع الشعوب الأُخرى.

وفي تلك الحقبة عينها، كان يسوع يعلن أَنّ ملكوت الله على الأَرض بات قريبًا. ولكن من كان ذاك القادم لإِقامة هذا الملكوت؟ كان لا بدّ له من أَن يقرّر مبادئ دينيّةً. أَوَتظنّون أَنّ يسوع، عندما كان، في الصحراء، يُعمل الفكر في خير الإِنسان، لم يواجه أَيّ شكٍّ، ولم يخطر له، لحظةً، أَنّه، بنصب عرشٍ دينيٍّ على قاعدةٍ ملكيّةٍ، كان كفيلاً بأن يضمن لنفسه سلطةً لا تقهر؟

لقد رُوي لنا كيف حاول إبليس إغواءه بوعد السلطة السياسيّة. ولسنا نملك سببًا للاعتقاد بأنّ هذه الرواية خياليّةٌ. فقد كانت أعلام الانتصارات الرومانيّة تخفق في الأجواء، محفوفةً بكلّ المجد الإمبراطوريّ، وكان الشعب اليهوديّ يداعب حلم فرح التحرّر. وفي مثل هذه الظروف، لا غرابة أن تمسّ رسالة يسوع، روح الشعب، في الأعماق.

ولكنّ المدهش هو أنّ يسوع بدّد كلّ هذه الأوهام، وبيّن، بوضوحٍ، حقيقة ملكوت الله التي لم يَرها في الثروة، ولا في الأمجاد، ولا في عظمة الإمبراطوريّة الرومانيّة، بل هو رآها في الفقر المنزّه من كلّ كبرياء، وعلى مسامع البشر أجمعين، أعلن، بلا تردّدٍ، أنّ ملكوت الله هو خاصّة المتواضعين.

وكان حكماء «الأوپانيشاد»[1] قد أدلوا بأقوالٍ مماثلةٍ رائعةٍ تتعلّق بالروح الإنسانيّ: «يحقّ للودعاء أن يملكوا كلّ شيءٍ».

يسوع يكشف عظمة الإنسان

لقد تخطّى يسوع تخوم العالم المرئيّ، وحدود الأوهام، وتسامى فوق الأحكام المسبّقة العامّة الشائعة، ووضع ملكوت الله في حقيقةٍ داخليّةٍ غير قائمةٍ على أيّ عنصرٍ خارجيٍّ. وفي هذا الملكوت يتعذّر على أيّ إنسانٍ الاستيلاء على كرامة المُذَلّين. ويستعصي على أيٍّ كان

١ «الأوپانيشاد» هي الجزء الأسمى من «الڤيدا» (Védas) أي الكتب المقدّسة الهندوسيّة، التي وُضِعت بين القرن الثامن والقرن الثالث قبل المسيح. وهذا الاسم يعني، حرفيًّا: «الجلوس عند أقدام حكيمٍ لسماع أقواله». وهي تتضمّن عناصر الفلسفة والحكمة الدينيّتين الهندوسيّتين الرئيسة. ويمكن مقارنتها بأسفار الحكمة في العهد القديم.

تدمير ثروة الفقراء. فهنا من يتّضع يُرفَع إلى الأَعلى، والأخيرون يمسون أَوّلين. ويسوع لم يُدلِ بهذا التعليم بأقوالٍ فحسب.

إِنّ اسم كبير قضاة الإِمبراطوريّة الذي قتله بيُسرٍ، ليس مدوّنًا إِلاّ في زاويةٍ صغيرةٍ من صفحات التاريخ. وبالمقابل، إِنّ ذاك الذي مات مصلوبًا ميتة سارقٍ حقيرٍ، ذاك الذي، في لحظة موته، لم يكن له من الأَتباع سوى حفنةٍ من تلاميذ مجهولين، رعاديد؛ ذاك الذي أَبى الاعتراض على إِدانةٍ جائرةٍ، هو، اليوم، ممجّدٌ وخالدٌ، ويحيا في قلوب سكّان الأَرض كلّها، وما انفكّ يؤكّد: «طوبى للفقراء، لأَنّ ملكوت السماوات لهم؛ طوبى للودعاء، لأَنّهم يملكون الأَرض».

بإِعلانه أَنّ ملكوت السماوات يثوي في الإِنسان، كشف لنا يسوع عن عظمة الإِنسان. ولو هو كان قد وضع الملكوت في عناصر خارجيّةٍ، لكان حطّ من رفعة مجد الإِنسان وقدسيّته. لقد دعا نفسه ابن الإِنسان، وجاء لكي يُظهر لنا من هو ابن الإِنسان.

أَمام الإِنسانيّة جمعاء، دعا اللّه أَباه. وعلاقة الابن بأَبيه هي علاقة قرابةٍ عميقةٍ. ليست علاقة سلطةٍ، ولا هي تحقيق وعدٍ. إِنّ اللّه أَبٌ وهذه العلاقة الأَبديّة، وحدها، تضفي على الإِنسان كلّ مجده. وبالتالي الإِنسان هو أَكبر من كلّ الكائنين، لا بصفته صاحب سلطانٍ، بل بصفته ابن اللّه.

ولذلك، عندما سأل إِبليس[1] يسوع: «هل أَنت ملكٌ؟»، أَجاب يسوع: «بل أَنا ابن الإِنسان!»، وبقوله هذا شرَّف البشر أَجمعين.

---

١ هذا السؤال طرحه بيلاطس، وليس إِبليس. ولكن، أَلم تكن المحاكمة كلّها التي أَطلق الحكم، فيها، بيلاطس، شيطانيّة الوحي والمسيرة؟

لقد أَدان يسوع الثروة، لأَنّها العقبة الكأداء دون الخلاص، وليس هذا التعليم هو تعليم ناسكٍ لا وزن له، فالغنيّ يعدّ الثروة ضمانه الأَكبر، وهو يخلط بين رغبته الدائمة في تنميتها، وإِنسانيّته ذاتها، وينتهي بإغفال قوى الروح. أمّا الذي يُفلح في إزالة كلّ عقبةٍ، من أجل اكتشاف قوى الروح، فهو يكتشف، أيضًا، قوّة اللّه. وفي هذه الرؤية يجد رجاء الخلاص الحقّ.

وعندما يكتشف الإِنسان حقيقة ذاته، يكتشف اللّه في ذاته، ولكن، إِن هو لم يرَ سوى الثروة عندما يتأمّل ذاته، فهو يحطّ من شأن ذاته، وينكر اللّه على درب الحياة.

إِنّ ابن الإِنسان قد رأى الإِنسان كبيرًا، ولم يرَه مجرّد أَداةٍ. وكما أَنّ لا قدرة للثروات الخارجيّة على جعل الإِنسان كبيرًا، كذلك لا قدرة للمواقف الخارجيّة على جعله قدّيسًا. كلّ اتّصالٍ خارجيٍّ، كالطعام، عاجزٌ عن تلويث إِنسانيّة الإِنسان، وقد تودي بها العلاقات الخارجيّة إلى الانحطاط.

وعندما ينحطّ الإِنسان هكذا، تفقد مشاريعه وأَعماله عظمتها، وتتراخى قواه، ويستسلم لدوار الانحطاط الذي يلتهمه. ولذلك نفى ابن الإِنسان تفوّق الطقوس والنصوص على الإِنسان، وقال: «لا يُعبَد اللّه بأَضاحٍ، بل بوَرَعٍ داخليٍّ». وبعد أَن تفوّه بهذا القول، لم يتحرّج من لمس المنبوذين والمجذومين، الذين كانت الشريعة تحرّم لمسهم، وقاسم سيّئي السمعة طعامهم. وعوضًا عن نبذ الخطأة، اقتادهم على درب الخلاص.

وفضلاً عن ذلك، توسّم حضور اللّه في البشر، وقال لتلاميذه:

«كلّ من أَطعم جائعًا فقد أَطعمني، أنا أَيضًا؛ وكلّ من يُلبس عاريًا، يكسوني، أَيضًا».

وفي كلّ مسلكٍ سلكه، وكلّ عظةٍ تفوّه بها، تجنّب حصر العبادة في ممارسةٍ خارجيّةٍ. فليست العبادة هي الوسيلة الوحيدة للتمتّع بنعمة الحبّ. وإن نحن حاولنا تملّق اللّه بتقديم الزهور والأَضاحي، والثياب، فإنّما نحن على ضلالٍ مبينٍ. وما تحويل العبادة إلى مجرّد عبثٍ، حتّى إن أَرضانا ذلك، سوى احتقارٍ للإنسانيّة.

ما زال يسوع حيًّا

لا يستطيع الذين تقبّلوا، حقًّا، أَقوال يسوع إنفاق وقتهم كلّه في الصلاة، بل يمكنهم التعبير عن صلاتهم بالخدمة. إنّه لخيارٌ صعبٌ. كثيرون منهم، بعد أَن عزفوا عن هناء رفاهيّة العيش، وبعد تخلّيهم عن علاقاتهم العاطفيّة الشخصيّة، عاشوا في بلدانٍ نائيةٍ، وسط شعوبٍ بدائيّةٍ، وبين بُرصٍ. ولا عجب في ذلك، لأَنّ الذي انتدبهم لهذه الخدمة هو ابن اللّه، الذي عبّر اللّه، من خلاله، عن عطفه على البشر.

لقد سمّى التلاميذُ يسوعَ رجلَ الآلام، لأَنّه تقبّل آلامًا رهيبةً. وبهذه الطريقة، أَيضًا، مجّد الإنسان، بإظهاره أَسمى من الأَلم. وهل، ثمّة، في حياته، أَعظم من كونه تلاشى، بإعلانه حبّ اللّه من خلال حبّه الشخصيّ لجميع البشر، عندما اختار أَن يأخذ على عاتقه كلّ ثقل الأَلم البشريّ. فدين الحبّ يتمثّل في السخاء والجاهزيّة لتنكّب وقْر آلام الآخرين.

إنّ الدموع العاطفيّة التي يذرفها حبٌّ خالٍ من الحياة، في إحدى

زوايا المنزل لا تمسّ سوانا. أَمّا الحياة الحقّة المدوّنة في الحبّ، فتستمدّ المجد من التجرّد ومن تقبّل الألم بلا كبرياء. لا يحتاج الحبّ إلى إبراز شأنه، من خلال الكبرياء، فهو يولّد، من ذاته، نبع خلودٍ.

ذاك هو اعتلان اللّه وسط البشر!

ليس تعليم يسوع هذا حقيقةً مسجونةً في إِحدى آيات الكتب المقدّسة، فيسوع تصرّف في حياته تصرّف الحقيقة. وما زال اليوم حيًّا، مثل شجرة البانيان[1] التي تُنبت، باستمرارٍ، فروعًا جديدةً. كلّ يومٍ تنهض عقباتٌ كأداء، محاولةً القضاء عليه. وكلّ يومٍ يشتمه بشرٌ يستبدّ بهم الظمأ إلى السلطة، ومُدّعون صَلِفون يسخرون به. والمعجبون بالقوّة يزدرونه، وينعتونه بالضعف والجبن، ويعدّه هواة القسوة أَعزل فيسعون إلى محقه. ومع ذلك يتغلغل تعليمه المتواضع، بصمتٍ، إلى أعماق الفكر البشريّ.

لقد اختار يسوع الأَلم مرتَكَزًا، والخدمة رفيقًا، وهو يقدّم ذاته بالكامل، لمن يأخذ قريبه على عاتقه، ولمن يُنهض أَخاه من كبوته، ولمن يحسن العطاء بلا مقابل.

لقد مجّد ابن الإِنسان، أَيضًا، الأَرض والبشر، ومحا مذلاّتهم، ودعم حقوقهم، ورفع عار الفضيحة عن المجتمع البشريّ، بزفّه بشرى أَنّ الجميع يقطنون بيت الآب. وهذا ما يعنيه إِيتاء الخلاص.

---

١ البانيان شجرةٌ دائمة الخضار، من فصيلة التين، قد تعلو حتّى ارتفاع ثلاثين مترًا. وهي هنديّة المنشإ، وتُغرس، عادةً، على مقربةٍ من الهياكل. ميزتها الرئيسة هي جذور أغصانها الخارجيّة المتدلّية في الجوّ، التي بملامستها الأَرض تكوّن، باستمرارٍ، جذوعًا جديدةً. وهكذا، مع مرور الزمن تكوّن غابةً كثيفةً. وهي رمزٌ للدين القادر على النموّ في كلّ اتّجاه، محافظًا على وحدته الذاتيّة، ورمزٌ للإِنسان الورِع، الناسك، المتصوّف.

٢ – الدين المسيحيّ

كلّ فريقٍ دينيٍّ يدّعي، مزهوًّا، أنّ الحقيقة بعد أن هجرت العالم كلّه لجأت إليه.

هذه الكبرياء لا تقتصر على ازدراء الحقيقة، بل إنّها تضاعف سطحيّة ظاهرها. فكلّما أمعن الأغنياء ازدهاءً بثرواتهم، توغّلوا في النيل من الكرامة البشريّة.

وإن كان لا ضير من أن يزهو الغنيّ بغناه، إذ إنّ كلّ امرئٍ كَلِفٌ بإرثه، إلاّ أنّه من الصعب القبول بأن يتصرّف فريقٌ بالحقيقة على هواه، بدافع الكبرياء. عندما يتفاخر مسيحيّون بدينهم، فإنّ ما يعبّرون عنه لا علاقة له بالدين، بل هو نابعٌ، حصرًا، من أنانيّتهم. ولذلك، عندما يتقدّمون منّا بصفة محسنين، نخجل من قبول الحقيقة من أيديهم، وكأنّنا متسوّلون؛ فالكبرياء تولّد الكبرياء، ولا يسوغ إدانة العزّة التي ترفض هبة الكبرياء.

تحرير يسوع

ولذلك ينبغي أن نبدأ بالسعي إلى تحرير المسيح من أيدي المسيحيّين، و«ڤيشنو» من أيدي الڤيشنوويّين[١]، وبراهما[٢] من أيدي البراهمانيّين[٣].

---

١ الڤيشنوويّة هي أحد التيّارات الثلاثة التي تتشعّب إليها الهندوسيّة الحديثة، والآخران هما «الشيڤائيّة» (Shivaïsme)، و«الشاكتيّة» (Shaktisme). مرجع الڤيشنوويّة هو القلب والحبّ، أكثر من العقل. ولدى أتباعها، فضلاً عن طقوسهم، أدبٌ رفيعٌ، دينيّ الطابع، يُعبَّر عنه شعرًا وغناءً.

١ البراهما هو التجسيد الذكريّ للبراهمان، أي مبدأ المطلق الشامل، الذي لا جنس له. إنّه الوجه الأوّل للثالوث الهندوسيّ، وهو الخالق.

٢ البراهمانيّون هم الطبقة الكهنوتيّة العليا في التراتبيّة الهندوسيّة، تليها طبقة المحاربين فالتجّار والصناعيّين، وفي المرتبة الأخيرة، طبقة الخدّام.

في أشرمنا[١]، ومن أَجل مقاومة روح الطبقيّة، لا نرفض الحقيقة، ونسعى إلى تقبّل الرسالة المسيحيّة المركزيّة، مطلقين عليها تسمية «جوهر الإنسان». لا «جوهر المسيحيّة».

إنّ كتبنا الدينيّة، «الڤيدا»[٢] تذكر أَنّ اللّه، البراهمان المطلق، هو، في آنٍ واحدٍ، مرئيٌّ وغير مرئيٍّ. وهذا يعني أَنّ طبيعته هي الظهور. واللّه قد ظهر في المسيح، وهذا هو دين المسيح. أَمّا حكماء الهند فقد وجدوا منبع فرحٍ في الماء، وفي الأرض، وفي المدى.

إن ظلَّ مصباحٌ يعمل بالبترول مشعلاً، الليل كلَّه، في حجرةٍ صغيرةٍ مغلقةٍ يرقد فيها، معًا، عددٌ كبيرٌ من الناس، يُشبَع هواؤها بالروائح الفاسدة. ولكن عندما تُفتَح الأَبواب والنوافذ، ويتدفّق الهواء النقيّ تضمحلّ الروائح. وهكذا، إن قدّمتَ فكرك المغلق للروح الأَسمى في السماء ستتلاشى بيُسرٍ جميع خطاياك المجمّعة من كلّ جانبٍ. هذه هي صوفيّة التحرّر التي تقترحها الهند.

إنّ الهندوسيّ، متبنّيًا تجلّي اللّه في كلِّ مكانٍ، قد حاول التقاءه في كلّ شيءٍ. وعلى هذا النحو عينه، غاية الدين المسيحيّ هي إِغداق روحه وحبّه، حيثما يتجلّى اللّه في الإِنسان.

إِنّه لمن السهل تبيّن وجود اللّه في الكون. ولكن من العسير اكتشافه

١ الأَشرم هو مكان خلوةٍ مخصّصةٍ للبحث الروحيّ والحياة التأمّليّة. وكان الأَشرم قد انتشر، قديمًا، في غابات الهند، وكان للشاعر طاغور معهدٌ في محلّة «شانتينيكيتان»، أراده مستوحًى من الروح النسكيّ العريق، وهو الذي يقصده بقوله «أَشرمنا».

٢ «ڤيدا» تعني، حرفيًّا، «معرفة»، وهي تضمّ أَربع مجموعات تعاليم دينيّة هندوسيّة يعود بعضها إلى أَلف سنةٍ قبل المسيح؛ وهي تتضمّن أَناشيد مقدّسة، وتسابيح، ونصوصًا طقسيّةً، وأَبحاثًا في العقيدة.

في الإنسان. ففي الإنسان قد دُوّن اعتلان مشيئة اللّه حيال الأَهواء البشريّة. وما لم يولَد الحبّ، تقاوم الإرادةُ البشريّة المشيئةَ السُميا.

في الفقر يختبر المرء الألَم. ومع ذلك، فالبؤس البشريّ ينجم عن الحقد. الحيوان، هو أيضًا، يتألّم، ولكنّ البؤس هو وقفٌ على الإنسان. والألَم الناجم عن الفقر يوجع الإنسان في بهيميّته. بيد أنّ أَعمق الآلام هي التي تنتج عن البؤس، والتي تمسّ الفرد في جانبه الإنسانيّ.

ولذلك يقول الحيّز الحيوانيّ من الإنسان: «إن اكتسبتُ مالاً، أَقصيت عنّي الألَم الناجم عن الفقر». أَمّا الحيّز الروحيّ فيه فيقول: «إن أَنا تخلّيتُ عن أَيّ شيءٍ، فإنّني، بذلك، أُقدّم إرادتي البشريّة الصغيرة للإرادة السُميا؛ وبإحراقي رغباتي أَجعلها تتألّق في الحبّ. إنّ ملء تجلّي الإرادة السُميا فيّ، يكمن في الحبّ».

إنّ أَعنف وجعٍ يُمنى به الإنسان يتمثّل في صغارته التي لا تني تنقضّ على عظمته، وهذه هي خطيئته. فدنسه يحول دون تجلّي عظمة كيانه تجلّيًا كاملاً.

الألم الكثيف الحقّ

الآلام الناتجة عن الافتقار إلى الطعام أَو اللباس، يسهل احتمالها. ولكنّ الألَم الكثيف الحقيقيّ هو عجز الإنسان عن إظهار عمق قامته إظهارًا كاملاً...

إنّ صغارة الإنسان تنهض عائقًا دون عظمته. وهذا هو مكمن قلقه.

هذا الألَم واقعيٌّ، ولا ريب في وجود علاجٍ له، علاجٍ لا يثوي

في التطهّر بالمياه، ولا في أيّ طقسٍ خارجيٍّ. ولقد أَثبت عظماء البشر، بمثال سيرتهم، كيف يتجلّى الخَالق في الإنسان، بلا عائقٍ، وبذلك لقّنونا درسًا مدهشًا، وهو أَنّ «الإِنسان أَعظم من ذاته»، إِذ إِنّ لديه قدرة التفوّق على الموت، والأَلم، والإهانات. ولو لم نتبيّن، نحن، ذلك، باستمرارٍ، في كلٍّ من آلامنا، لما خطر لنا ببالٍ أَنّ عظمة الإِنسان كامنةٌ في صِغره.

من ذا الذي تجرّع كأس الأَلم الناتج عن الصدام الدائم بين عظمة الإِنسان وصِغره؟ إِنّه العظيم، إِنّه اللّه!

على من ينهال الحقد؟ إِنّ الضربات تتهاوى على من يصفح دائمًا! ومن ذا الذي سلبه الجشع ثرواته؟ ذاك الذي ارتضى فقدانها، واعتصم بالصمت، لأَنّه موقنٌ أَنّ ما سُرق منه سيعود.

ومن ذا الذي استدرّت الخطيئة دموعه؟ ذاك الذي يحبّ حبًّا لا حدود له. هذا كلّه نلمسه، لمسَ اليد، لدى المؤمنين. ولذلك، فإِنّ الخطايا التي تولّدها الميول الفاسدة هي مريعةٌ إلى أَبعد مدى.

إِنّ الأَلم الذي يسبّبه بؤس الآخرين هو الأَخطر شأَنًا. فالذي يعاني هذا الأَلم هو العظيم، أي هو الحبّ. والمسيحيّة تعلّمنا أَنّ اللّه يقيم في الأَشدّ تألّمًا... ولا شيء أَكثر صحّةً من ذلك. إِنّ الساكن فيّ هو كبيرٌ وقديرٌ، ومع ذلك أَنا أُسبّب له أَلَمًا، بيد أَنّه لا ينفكّ يردّد على مسمعي: «كلّ خطايا العالم تصيبني، ولكن لا قدرة لأَيّةٍ منها على قتلي».

مؤكّدٌ أَنّ أَمهر اللصوص قد أَفلحوا في سرقة الثروات كلّها، وبدّدوا أَثمن كنوز الإِنسان؛ وثمّة خونةٌ. ولكنّ الإِيمان لم يتلاشَ في العالم. وثمّة قومٌ يتصارعون، ولكنّهم لم يستطيعوا قتل الغفران.

اضربوني، اضربوني، اضربوني!

إنّ العظيم قد أمسى خالدًا بآلامه.

ولكن إن كان هذا الألم هو الواقع الأسمى الوحيد، فكيف تسنّى له البقاء؟ لقد تمكّن العظيم من احتمال الألم، لأنّ خمرة الفرح الخالد تثوي فيه.

هل يقوى الصغير على احتمال وجعٍ ضئيلٍ؟ أو على ارتضاء التخلّي عن ذرّةٍ من أيّ شيءٍ؟ وما وسيلته إلى ذلك؟ أين هو حبّه، وأين فرحه؟

إنّنا نكدّس خطايا باستمرارٍ. والعظيم يذيبها، باستمرارٍ، في دمه، بألمه ودموعه. هذا ما يحدث كلّ يومٍ، في كلّ بيتٍ.

العظيم يقول: «اضربوني، اضربوني، اضربوني!»، فبمعزلٍ عنّي لا قدرة لأحدٍ على التحمّل». حينئذٍ نجيب، مذرّفين الدموع: «سنكفّ عن ضربك، فأنت خيرٌ منّا. لقد دفنّا وحيك في الرغام، وسنغسل كلّ شيءٍ بدموعنا. وها قد جلستُ، أنا، اليوم على عرشك، وسأحمل ألمك. خذني، خذني، خذ كلّ ما أملك. أنتَ أحببتَ، وأنا سأحبّ، أيضًا». وهكذا لن تكون، بعدُ، أيّة فرقةٍ.

عندما هو يعاقبنا، لا قِبَل لأحدٍ على احتمال ألم عقابه الرهيب. ولكن هنا تموت جذور الشرّ، ولا تموت في عقاب الجحيم.

إنّ الكبير هو حبٌّ ويتجلّى حبّه من خلال صغار الأُمور. إنّه يزيدني حياةً، لأنّه يهبني نور السماء، وروعة الأرض، في علاقة حبٍّ بالإنسان. لدى مشاهدة عظمته، يبتهج القلب، فيبدع الفنّان مأثرته، وينصرف الصانع إلى عمله بمزيدٍ من الطاقة. إنّ كلّ أعمال البشر تعبّر عن هذا الإعجاب:

«لم أَشهد أَجمل منك، وما رغباتنا، وجشعنا، وفسقنا، وسورات غضبنا إلاّ ظلمات. لكنّك، أَنت، جميلٌ، وقدّيسٌ، وأَنت تخصّني!».

لقد احتمل كلّ إهانات البشر، وما آلامه سوى صدًى لجذور خطيئة الإِنسان، في مجتمع البشر. ولا ريب أَنّ ظهوره غير محصورٍ بحقبةٍ تاريخيّةٍ. فإِله البشر موجودٌ في الإِنسان، ومقاومته خطيئة. أَمّا الاتّحاد به، فيمحو خطيئة الإِنسان. إِنّ هذا العظيم، بتقدمة حياته المستمرّة، قد أَحيى الإِنسان الصغير.

٣ – عيد يسوع

... إِنّ الذين تعرّفوا صورة الحقيقة، وسط الانقسامات، أَدخلوا إلى الحياة إِعلان الفرح. وعلى امتداد التاريخ، علّم هؤلاء العظماء أَنّ درب الحبّ لا يتوقّف أَبدًا. وحتّى إِن ظلّ قلب الإِنسان موصدًا ومتجمّدًا، فهذه المسيرة تستمرّ بلا هوادةٍ. وعلى بُرعم «لوتُس»[١] الفكر يحطّ النور، ولا يني يجهد في إِزهاره. وانتظار الحبّ هذا يسود كلّ الكون، إلى أَن يزهر البرعم المغلق، حتّى عندما لا يلحظ العالم ذلك.

على هذا النحو تميّز إِنسانٌ عظيمٌ، وهب حياته، وقال: «إِنّ الذي أَبدع في السماء، وفي ما يتخطّى السحب، مساكن النجوم التي لا

١ اللوتس نبتةٌ مائيّةٌ، لها رأسٌ يحمل براعم كثيرةً، وهي تُعتبَر لدى الهندوسيّين، عندما تتفتّح جميعها، مركزًا للألوهة. وطاغور يستخدم هذه النبتة رمزًا للطهر، لأَنّها عندما تنبثق من مياه المستنقعات الموحلة، حيث تنبت جذورها، تبدو منزّهةً من كلّ لوثةٍ.

تُحصى، إنّ سيّد هذا الكون الكبير، هو أَبي، فعليَّ ألاّ أخشاه. وإنّ قوّة ذاك الذي، من أَجل مجده، يدور العالم كلّه، تحت هذه السماء الرحبة، هي قوَّةٌ لامحدودةٌ، ومن الروعة، بحيث نحن البشر، حياله، صغارٌ، وعديمو الشأن.

«وليس، في ذلك، ما يخيفنا. فأَنا على علاقةٍ حميمةٍ بمنظّم هذا الكون كلّه، وشاهدٌ عليه، وهو أبي. وهذه الأُبوّة، هي التي، منذ أصل الكون، قد ملأت الفراغ، وفجّرت نبع الفرح من الأَحزان الناجمة عن الموت. واليوم، يتوجّب علينا أَن نتلمَّس، في أَعماق ذواتنا، هذه العلاقة العذبة. لقد قال أَبونا الأَسمى: «لا تخشوا شيئًا. فشريعتي ماثلةٌ في الشمس والنجوم، وهي معصومةٌ من الخطإ، ولا أَحد، ولا شيء، قادرٌ على انتهاكها. أَنت تخصّني، وأَنا أُحبّك».

يجب أَن نحترم، بعمقٍ، الذين، على مدى القرون، بلّغوا هذه الرسالة التي تفعمنا قوّةً.

ذات يومٍ، قال ابن الإنسان إنّنا، جميعنا، أَبناء أَبي الكون. وإنّ ظمأنا الكمين إلى الحبّ قد مسّ شغاف قلبه. يستحيل ألاّ يكون لآلامنا ولرغباتنا أَيّ معنًى. فهو، إذ أَضحى صديقنا، قد أعطى الجواب؛ والإنسان، باندفاعٍ، تعرَّف فيه أُمًّا تهب الفرح، وروحًا يُغدق الخير، وتعرَّف فيه أَبًا.

عندما يزعم المرء أَنّ الكون لا تسوسه، من الخارج، سوى آليّةٍ، فهو يتردّى بنفسه إلى شيءٍ صغيرٍ، إلى كائنٍ ضعيفٍ. ولكن، عندما بفضل الحبّ، يعترف أَنّ الكون هو تجلّي اللّه، حينئذٍ يدرك حقيقة كيانه.

لقد صلبوه عدّة مرّاتٍ

في سبيل إِعلان هذه الحقيقة تجسّدت النفس الكبيرة، أَي يسوع، ذات يومٍ، في ديار البشر. لم يأتِ مزوّدًا بأَسلحةٍ وذخائر، ولا مرتديًا زيًّا عسكريًّا. ولم يزعم القوّة، بل ذرع الشوارع في أَسمال الفقراء، وأَغدق بركة الآب، ومقابل زفّه البشرى السعيدة، لم يُكافأ إلاّ بالشتيمة والجراح، التي انصبّت عليه من كلّ صوبٍ.

فقيرًا، ومن بابٍ إلى بابٍ، دعا إلى الصدوف عن التماس ملجإٍ في الثروة، فالملجأ الحقّ، هو ذاك الذي يغمر الكون. إنّه الحاضر الذي يملأ المدى والزمن. إِنّه الفرح الأَسمى، والملجأ الأَخير. والذين لا يدركون واجب التخلّي عن متاع الدنيا، من أَجل بلوغ هذه الحقيقة، يعتريهم الرعب، وقد يفقدون، من جرّاء ذلك، حياتهم، وتستحوذ عليهم عبوديّة الخوف والجشع، ولا يشعرون، حيال مخلّصهم، إلاّ بالازدراء.

ذلك الإِنسان العظيم قد بلّغ هذه الرسالة للبشر، متخلّيًا عن حياته، مرتضيًا الموت في سبيل الرسالة. في أَسمال الفقراء، ذرع كلّ الدروب لكي يُفتح للروح البشريّ باب السماء. وقد تعذّر على القوم البسطاء الذين اتّبعوه فهمُ فحوى رسالته، فهمًا كاملاً. غير أَنّ نعمةً فريدةً حلّت عليهم، فانحنوا خاشعين، مطأطئي الرؤوس، ولم يكن لأَحدٍ علمٌ بأَماكن سكنهم. كانوا مجرّد صيّادي سمكٍ بسطاء. ولكنّ الدعوة التي تلقّوها من يسوع أَنشت نفوسهم بخمرةٍ سرّيّةٍ عذبةٍ. وهكذا رحّب يسوع بمن لم يكونوا يملكون شيئًا، غير أَنّ المتكبّرين أَعرضوا عن هذه البشرى السامية.

بيد أَنّ أَتباعه لم يلتزموا، دائمًا، بكلام النفس الكبيرة، فشتموه، عبر التاريخ، ولطّخوا الأَرض بالدماء، وصلبوا يسوع، لا مرّةً واحدةً، بل مرّاتٍ عديدةً. ونحن، لكي نكرّمه تكريمًا صحيحًا، يجب أَلاّ نحكم وفقًا لمعيار الذين لا يؤمنون به، بل علينا أَن نحدّق إليه بإيمانٍ. إِنّ روح المسيح يراقبنا، اليوم. وهو لم يطُفْ بشوارعنا لكي يُعلِن أَقواله في كنائس كبرى، فقط، بل لكي يمكث، بكلّ رجائه، إلى جانب من لم يدَعْ نسغَ الحبّ يجفّ في قلبه. وفي الوقت المناسب، متّحدًا بالأَشدّ فقرًا وتعرّضًا للازدراء، قال لأَبي الكون: «أَبتاه، أَنت موجودٌ، وأَنت أَبونا».

وحدة الحياة والموت التي لا تتجزّأ

إِنّ الذي يرى في الحياة والموت أَمرين منفصلَيْن لا يدرك الوحدة القائمة بينهما. وهذا الفصل هو خطأٌ جسيمٌ يحاكي خطأ من لا يأخذ بالحسبان، في الجسد، سوى جزئه الأَماميّ الذي يحتوي الوجه، لأَنّ الظهر يفتقر إلى عينين. إِنّ الذي يزعم واقعيّة الانفصال بين الحياة والموت، يعترف بجزءٍ من الحياة، فقط. إِنّنا نقدّر، أَرفع تقديرٍ، الذين، بعد أَن تحرّروا من هذا الوهم الباطل، استوعبوا معنى الخلود، والذين، من خلال الموت، اكتسبوا الخلود وخلقوا الفردوس على الأَرض.

إِنّ زائرًا من مملكة الخالدين قد جاء، يومًا، كي يزفّ لنا أَقوال موطنه، ونحن، بدورنا، متذكّرين هذه الأَقوال، نستطيع أَن نشهد النور الخالد المنحدر على ظلال الموت القاتمة. عندما تغرب الشمس، ويسود الليل، يظنّ الأَحمق أَنّ النور قد أُطفئ، وأَنّ الوجود تلاشى.

ولكن، إِن نحن راقبنا، في تلك اللحظات، قبّة السماء، فسنلحظ أَنّه، مع تواري الشمس، ما زالت السماء تتلألأ بالكواكب.

وبعد أَن يفرغ الملك العظيم من جلسته، يصدح نشيد النور من جديدٍ، إِيذانًا بجلسةٍ أُخرى.

ونحن، أَيضًا، مدعوّون إلى الشدو بهذا النشيد الذي يتسنّى لنا سماعه عندما يغمرنا النور ويُلهبنا.

فلنحفظ الخيط الذي يربط الحياة والموت بوحدةٍ لا تنفصل. فالرجل العظيم الذي، بحياته، أَعلن لنا المساكن الأَبديّة، عاد بموته إلى سماءٍ زاخرةٍ بحياةٍ جديدةٍ، لا يعقبها موتٌ. إِنّ موته يتيح لنا بلوغ الحقيقة الكبرى بوضوحٍ.

٤ – الإِلهيّ في البشريّ

لا يسعنا إِنكار أَنّنا، في الحياة، مقيَّدون بقوانين الكون الثابتة. ولكي ننعم بحرّيّةٍ حقّةٍ، علينا أَن نقبل هذه القوانين قبولاً كاملاً. وبقدر ما نلتزم بها نظفر بالصحّة، والثروة، وكلّ أَصناف الخيرات.

ولكن، ثمّة حقيقةٌ غائبةٌ عن القوانين. فالقوانين تفرض علينا قيودًا. أَمّا الروح، فهو في حاجةٍ إلى علاقاتٍ. والقيد لا يتعلّق إِلاّ بجزءٍ واحدٍ، في حين أَنّ العلاقة تحقّق الوحدة بين الجزءَين.

وعندما نؤكّد أَنّ نظام الكون لا يفسح أَيّة مساحةٍ لعلاقات النفس اللامحدودة، ولا يتيح لنا سوى اتّصالٍ خارجيٍّ لا يدوم سوى زمنٍ قصير، فعلينا استخلاص أَنّ الدين العميق الذي ينطوي عليه نظام الكون هذا لا يقدّم للعالم جوابًا أَبديًّا.

بيد أنّ العالم ليس محكومًا، فقط، بقانون البقاء، بل يحدوه أيضًا فرح الوجود. وليس الفرح وقفًا على الأرض، بل هو، أيضًا، موجودٌ في اللانهائيّ. أين الحقيقة، إذن؟ إنّنا ننشد الحقيقة في الوحدة. عندما نلحظ مبدأً وحيدًا في شتّى الأحداث (مثل العصا التي تسقط من اليد، والثمرة التي تنفصل عن النبتة أو الشجرة، أو النهر الذي يتدفّق من الجبال...)، عندئذٍ يهتف العقل البشريّ: «لقد رأيت الحقيقة!». ولكن، طالما أنّ هذه الأحداث لم تمثِّل، في نظرنا، أيّ قاسمٍ مشتركٍ، فلا معنى لها. والعلماء يقرّون الحقيقة عندما يتكرّر حدوث المبدإ، مرّةً إثر مرّةٍ.

على هذا النحو تحكم القوانين ملكوت الأشياء. ولكن أليس في ملكوت النفس حيّزٌ تتّحد فيه كلّ الحالات التي تنشئ الفرح؟ فنحن نؤنس الفرح في الصداقة، وفي الأبناء، وفي جمال الطبيعة. فما هو الجامع بين هذه كلّها؟ العلماء يأبون الإجابة على هذا السؤال. ولكنّ القدّيس يجيب: «أنا شاهدته. إنّه جوهر النعمة، والفرح اللامحدود».

يسعنا أن نتبيّن، في كلّ مكانٍ من العالم، موزّع القوانين. ولكنّ الحكماء المتّصلين بالحقيقة تبيّنوا فيه، أيضًا، «الصديق» الفريد، بين كلّ الأصدقاء، و«الأب» المميّز بين جميع الآباء. لقد اكتشفوا ما أغفله جواب العلماء. وحينئذٍ يهتف الروح: «لقد عثرت على كوني، ونلت الخلاص».

إنّ يسوع المسيح هو من يملك الجواب الصحيح على أكثر تساؤلات روحنا سرّيّةً، وهو يقول: «أنا الابن، والآب يتجلّى في الابن». وهذا لا يعني مجرّد تبادل علاقاتٍ بين الآب والابن، بل يعني تجلّي الروح بالآب والابن. المسيح قال: «الآب فيّ». مثلما يقول العشّاق: «لا

شيء يفصلنا». هكذا يتكلّم من يقيمون، في ما بينهم، علاقاتٍ صادقةً وعميقةً. والنفس الكبيرة قالت: «أَنا والآب واحد». ربّما ذكّر هذا القول بتأكيدٍ قديمٍ، أَدلى به آخرون. بيد أَنّنا نجلّ من أَثمرت أَقواله حياةً، وكانت وافرة الغلال.

ثمن الأَقوال الصادقة

قال المسيح: «فيّ يتجلّى الآب». وفي الهند، أيضًا، دوّى قولٌ مماثلٌ، ولكنّه طالما لم يتخطّ تخوم الكتب المقدّسة، ولم يقتحم الحياة، ظلّ عقيمًا.

وبقدر ما يعلن بشرٌ هذا القول، من خلال خطاباتٍ طنّانةٍ، ولا ينفّذونه، فهم، بنفس القدر يدنّسونه جهارًا. وهذا ما تفعله، في كلّ لحظةٍ، جماعةٌ مسيحيّةٌ تعلن بشفاهها: «يا ربّ!»، ولكنّها، عمليًّا، تتنكّر له.

إِنّ ثمن الأَقوال الصادقة يجب أَن يُدفع أَفعالاً!

وإِن نحن توقّفنا عند هذا لكي لا نرى سوى هذا الجانب السلبيّ، سنكون مضطرّين إلى الاعتراف بأنّ مولد المسيح كان باطلاً، وبأَنّ الوردة قد تفتّحت، وأَظهرت جمالها، ولكنّها، في المحصّلة، لم تؤتِ ثمرًا.

لقد شهدتُ، بأمّ عينيّ، أَفعال عنفٍ مفرطةً، حتّى لدى مسيحيّين. غير أَنّني، بالمقابل، شهدتُ مبادرات عطفٍ وحبٍّ حيال الآخرين، وتضحياتٍ في سبيل صالحهم، وتلك هي مكمن عظمة الجماعة المسيحيّة. وإِن نحن، بدافع التعصّب، رفضنا الاعتراف بهذا الواقع،

سنكون قد خنّا الحقيقة. إنّ تعليم المسيحيّة لا يني يؤكّد: «اخدم اللّه من خلال الإنسان. فتقدمتك تتحقّق في صحون الجياع، وعلى أجساد العراة». والمسيح، بولادته البشريّة، قد أعلن اتّحاد الإنسان باللّه.

قدّم رجلٌ غنيٌّ ملايين، كي يزيّن عنق تمثالٍ في معبدٍ، احتفالاً بفطام ابنه، ولم يلحظ أنّ الآخرين، من حوله، كانوا ينفقون ظمأً، ولم يدرك في قلبه حمق تقديم مصباحٍ، حيث الشمس ساطعةٌ، مثل مهزلة تقديم جرعة ماءٍ حيث البحر سحيق العمق. من الجليّ أنّ اللّه يطالب بالماء حيث الإنسان يعاني العطش. ولكنّ البشر يُصِمّون آذانهم عن سماع نداء اللّه، ويجمعون لآلئ وجواهر للهيكل.

بمحاولته إلهاء اللّه بالتقادم يُسيء الإنسان إلى اللّه، إساءةً مزدوجةً، ويوجعه في ابنه. لقد شهدتُ امرأةً تودع أمام أقدام كهنة المعبد صررًا من المال الرنّان، واهمةً أنّها، بذلك، إنّما تدفع ثمن دخولها الفردوس. ولكنّها لم تلقِ نظرةً إلى المتسوّل حيث يُقيم اللّه الذي جعل نفسه فقيرًا ينتظر بضع نقودٍ ذهبيّةٍ.

هذا الصباح تلقّيتُ رسالةً من السيّد «أندروز»[1]، وهو صديقٌ لأسرتنا، وقد وقف نفسه لعملٍ، من شأنه ليس فقط ألاّ يؤتيه ويؤتي أُسرته، أيّ نفعٍ مادّيٍّ، بل إنّه أكسبه عداء مواطنيه. فهو، حالما حطّ رحاله في الهند، تبيّن أنّ هنودًا كثُرًا مصابون، إصابةً خطيرةً، بداء الجدريّ، فضحّى بعمله كي يساعدهم. من، تُرى، وهبه الجرأة على خدمة أولئك الهنود، في حومة الآفة النازلة بهم؟

إنّ اليقين بأنّ خدمة أبي الكون تتمثّل في خدمة أبناء الإنسان،

١ «أندروز» قسٌّ بروتستانتيٌّ بريطانيٌّ. كان، سحابة سنواتٍ طويلةٍ، وحتّى وفاته، صديق الشاعر طاغور، ونجيَّه. وكان، أيضًا، صديقًا حميمًا ومعاونًا للمهاتما غاندي.

راسخٌ، بعمقٍ، في البلدان المسيحيّة، منذ أَمدٍ طويلٍ، بحيث إِنّ هذه الرسالة تسري في عروق حتّى المسيحيّين الذين يدّعون الإِلحاد، فهؤلاء، أيضًا، يؤمنون بواجب التضحية والتألّم من أجل الآخرين.

ما هي، إِذن، النبتة التي تنتج هذه الثمرة؟ ومن هو الذي يُسيل نسغ الحياة هذا؟ جوابًا على هذه الأَسئلة لا بدّ من الاعتراف بأَمرٍ واحدٍ: إِنّ هذا كلّه هو نتاج المسيحيّة.

هذا الدين انتشر في الغرب، تحت أَشكالٍ مختلفةٍ، مرئيّةٍ وخفيّةٍ، وأَنا لم أَشهد، في أَيّة بقعةٍ أُخرى من العالم، أَشخاصًا يحدوهم مثل هذا الاهتمام ومثل هذه الثقافة التي تدفع إلى البحث العلميّ من أَجل خير الإِنسان. ففي أَيّ بلدٍ يدرس القوم ويبحثون عن وسائل مبتكرةٍ، من أَجل استكشاف كلّ منحًى من مناحي الحياة البشريّة؟ وقد انطلقوا إلى شعوبٍ نائيةٍ من أَكَلَة لحوم البشر، وسألوهم: «أَنتم بشرٌ، فعلامَ تفعلون هذا؟ وما هي الأَفكار التي تحدوكم؟».

وماذا عنّا؟ إِنّنا لا نعير حتّى جيراننا، اهتمامًا، ولا يدفعنا، حيالهم، لا فضولٌ ولا احترامٌ. إِنّنا غارقون في سُحُبٍ من الجهل والتخاذل، ونجهل كلّ شيءٍ عن ظروف حياة معظم جيراننا.

فما هو سبب ذلك؟ إِن كنّا، اليوم، نعاني كلّ هذه الكوارث الخطيرة، فلأنّنا لا نولي الإِنسان حقّه من الاحترام.

لم يخلّص المسيح، فقط، بضعة أَشخاصٍ على الأَرض، بل هو خلّص الإِنسان من لامبالاته حيال الآخرين. وإِنّ الذين ينكرون، اليوم، مسيحيّتهم، لن يلبثوا أَن يؤذوا ذواتهم، مع أَنّهم، هم أَيضًا، بطريقةٍ أو بأُخرى، تلقّوا تعاليم المسيحيّة.

إنّ الإنسان ينطوي على قيمةٍ كبرى. فهو، بخدمته قريبه، يخدم اللّه. إنّ الذين رفضوا هذه الرسالة في أوروبّا، لم يجدوا إلى التقدّم سبيلاً، في حين أنّ النتائج التي أحرزها الذين التزموا بهذه الرسالة، جليّةٌ للعيان.

عسانا، نحن أيضًا، نتقبّل، بلا كبرياءٍ، هذا الاحترام للإنسان، الذي أيقظته المسيحيّة، بتكريمها الإنسان الذي أعلن هذه الحقيقة!

٥ – عيد الميلاد الحقيقيّ

ليس مولد ذاك الذي نقرّ أنّه إنسانٌ كاملٌ، مجرّد حدَثٍ تاريخيٍّ، بل إنّه، أيضًا، حدَثٌ روحيٌّ.

ونور الفجر الذي انبثق في ذلك النهار، ليس مجرّد فجر يومٍ من الأيّام، بل هو نور الفجر الأبديّ. وهو، من يقظةٍ إلى يقظةٍ، يظهر النور الذي لا بدءَ له.

يعترف الفلكيّون أنّ تألّق النجوم الذي يصل اليوم إلى أبصارنا قد استهلّ رحلتَه، منذ زمنٍ سحيق القِدَم. وهكذا فإنّ عهد الذي أعلن الحقيقة، لم يبدأ في اليوم الذي رأيناه فيه، إذ إنّ إلحاح الحقيقة يندرج في الأبديّة، وقد نتبيّنه في لحظةٍ محدّدةٍ، ولكنّنا نعلم أنّه ليس محدودًا بحقبةٍ.

ليس الاحتفال بمناسبةٍ دينيّةٍ معيّنةٍ، تكريمًا لعظماء، في يومٍ محدّدٍ، سوى إيفائهم دَيْنهم بكلفةٍ بخسةٍ؛ فنحن، بإغفالهم مدى ثلاث مئةٍ وأربعٍ وستّين يومًا، واستذكارهم في اليوم الثلاث مئة والخامس والسّتين، لا نرضي سوى شكليّاتنا. إنّ تنفيذ الحقيقة لا يتمثّل في

اعترافنا بواجباتنا: فمن السهل أَن نرتكب، بذلك، خطأً. وإِن نحن حاولنا الهروب من واجباتنا من خلال ترديد أَقوالٍ، فإِنّنا إِنّما نجعل دروب الحقيقة أَشدّ وعورةً. فنتخاذل عن ممارسة الحقيقة في حياتنا، آملين تخليص نفوسنا بتقديم أَناشيد تمجيدٍ، وهذا هو حلٌّ سهلٌ. ولكنّنا، حينئذٍ، نَسجن في تكرار طقوسٍ خارجيّةٍ أولئك الذين جاؤوا لكي يحرّرونا من سطحيّتنا.

تخجلني فكرة دعوتي، يومًا فقط، من أَجل إِقامة احتفالٍ. فليس من الجدّ أن نكافئ، بأَقوالٍ، ذاك الذي يتوجّب علينا الاتّحاد به طيلة حياتنا.

هل يسوغ أَن أَتحدّث عن مولد يسوع، بمجرّد ربطه بتاريخ روزنامةٍ محدّدٍ؟ وهل يمكن أَن نحسب اليوم الروحيّ الذي لا قِبَل للزمن على إِفصاحه لأَحدٍ، بمجرّد تعداد السنوات؟ إِنّ ابن الآب قد وُلد في حياتنا، يوم تخلّينا عن شيء ممّا يخصّنا، باسم الحقيقة، ويوم دعونا إِنسانًا آخر أَخًا، بدافع حبٍّ حقيقيٍّ. هذا هو عيد الميلاد، في أَيّ يومٍ يحدث.

يمكن أَن يحدث عيد مولد يسوع في حياتنا، في أَيّ وقتٍ، وكذلك ذكرى صلبه.

في هذا اليوم، بالتحديد، في جميع البلدان، وفي جميع الكنائس، تصدح أَناشيد تمجيدٍ لذلك الذي حدّث البشر أَجمعين عن الآب الأَسمى. وخارج هذه الكنائس عينها، تغمر الأرض دماء الإِخوة الذين يُقتلون. والذين يقدّمون الأَناشيد، داخل الهيكل، للربّ، ينكرونه بدويّ المدافع، وبإمطار الموت من الأَجواء، ويزرون بتعاليمه.

هناك شراسةٌ مرفوضةٌ تتمثّل في انتزاع طعام الفقراء منهم عنوةً. والذين لا يملكون الجرأة على مواجهة الضربات، وعلى مقاومة العنف

باسم المسيح، يقدّمون، وقوفًا، أمام الهيكل، أناشيد تمجّد انتصار الرحيم الذي طعنته حربةٌ.

إذن، علامَ هذا هو يوم عيدٍ؟ وكيف لي أن أعلم أنّ المسيح وُلد على الأرض؟ وبمَ أستطيع أن أفرح؟ وكيف لي أن أُعلن، بالأقوال فقط، مولد يسوع هذا عينه، الذي، من جانبٍ آخر، أضربه بيديّ؟ إنّه، اليوم أيضًا، في تاريخ البشر، ما انفكّ يُصلَب في كلّ لحظةٍ.

لقد أعلن يسوع الإنسان ابنًا للآب الأسمى، ودعا الأخ إلى الاتّحاد بأخيه. وعلى الهيكل أودع تقدمة الحقيقة البشريّة المتواضعة؛ وبأقوالٍ خالداتٍ حضّنا على الوحدة. ولكنّنا، جيلاً فجيلاً، رفضنا دعوته، وفعلنا كلّ شيءٍ لكي نخالف أقواله.

... إنّ ذاك الذي جاء تأكيدًا حيًّا للأُبوّة الإلهيّة انتهى إلى بابنا مجلودًا بالسياط، ومزدرًى. فلا نحصرنّ كلامه في الأناشيد والتسابيح. إنّ هذا اليوم هو يوم ندامةٍ، وليس يوم متعةٍ. وإنّ عار أفعال الإنسان، اليوم، يغشى العالم أجمع. فلنخفض رؤوسنا المتكبّرة نحو الحضيض، ولتذرّف عيوننا الدموع.

يوم الميلاد هو يوم تأمّلٍ، يومٌ نتّضع، فيه، جميعنا.

(شانتينيكيتان، ١٩٣٢/١٢/٢٥)

٦ – في الحبّ، نورٌ للإنسان

... إنّ أجواء القلب البشريّ لم تتحرّر، بعدُ، من النجاسة، فالمصائب تتوالى. ولكن، على امتداد القرون، أتت نفوسٌ كبيرةٌ، كي تزيح هذا الحجاب الصفيق الذي يشيع الظلمة، عن روح الإنسان.

ثمّة مناطق تحتضن مناجم ذهبٍ وفضّةٍ، ومنها ما يتوفّر فيه الطعام واللباس. وعلينا أَن نتقبّلها بصفتها هباتٍ مادّيّةً. بيد أَنّ عظمة العالم لا تكمن في منبع الثروة هذا. فمن السماء يهبط خير العالم الحقّ. ومنها ينتشر النور، ونسمة الحياة والحرّيّة، ومنها، أَيضًا، ينبثق الجمال.

أُوكسجين يكافح السموم

في الطبيعة البشريّة تنمو المادّيّة، حيث يزدهر الغشّ في الأَعمال، ويتنامى جاذب الربح وتكديس الثروات. وحيث تؤدّي الحماقة إلى تغلّب غواية هذه الخيرات على كلّ قيمةٍ أُخرى، لن يقوم سلامٌ، وسيظلّ المجتمع محاطًا بغازٍ سامٍّ، يسعنا، منذ الآن، تبيّن نتائجه في العالم أَجمع. فقد غدا الجشع، اليوم، يلوّث الكون، ويضرم نار العنف في كلّ فردٍ.

فلنذكر، في هذا اليوم، أُولئك العظماء الذين لم يبحثوا عن ذهبٍ، ولا عن فضّةٍ، ولم يحرّضوا أَحدًا على ممارسة العنف على الضعفاء. بل، على نقيض ذلك، قدّموا ذواتهم جسدًا ونفسًا، كي يوفّروا أَعظم كنزٍ، كنز الحرّيّة.

قديمًا، وُلد عُظماء كثُرٌ نُسِيت أَسماؤهم. ومن المحقّق وجود عظماء الآن، يطهّرون أَرضنا، ويجعلون حياتنا جميلةً، بل رائعةً.

تُعلّمنا الكتب العلميّة أَنّ النباتات تحرّر الطبيعة من سمومها، بواسطة أوكسجينها، وبالطريقة عينها، إِنّ وجود القدّيسين، الحيّ، يطهّر من السموم التي تفرزها تصرّفاتنا. وبهذه المناسبة، فلنكرّم المسيح، فكلامه مقدّسٌ، وهو رمزٌ للذين أَبقوا حيّةً هذه الرسالة التجديديّة. ومعه فلنكرّم جميع القدّيسين الآخرين الذين، من خلال بذل حياتهم، نشروا الخير.

في هذا اليوم الذي أَجمع العالم على اعتباره ذكرى مولد يسوع، نكرّمه، ونكرّم كلّ الذين، في هذا العالم، يستأهلون الاحترام. في بعضهم استطعنا اكتشاف مجموع ما يكمن في الإنسان من خيرٍ. ولا مراءَ أَنّ ملائكة الخير هؤلاء هم قليلو العديد في تاريخنا، ولكنّ الخير لا يُقاس بالكمِّيّة.

لقد زوّدت آياتُ «الأوپانيشاد» الهندَ بالجرأة. غير أَنّ هذه العبارات ليست سوى وسائل للتأَمّل. ولو أَنّ الأَشخاص الذين تجسّدت هذه الأقوال في حياتهم ظهروا لنا ظهورًا مرئيًّا، لكُنّا، حقًّا، محظوظين. فحروف الكتب لا تتكلّم، أَمّا البشر فيتكلّمون. وإنّ يسوع، الذي نتكلّم عنه، قد عانى آلامًا جمّةً، وكان عليه أَن يواجه العديد من الأَعداء. وأَخيرًا، مات شرّ ميتةٍ وأقساها.

إنّ حبّ الإنسان هذا يتألّق للأَبد في نور ألمٍ أَقصى لا يمكن أَن يُحبَس طيّ كتابٍ، فحسبُ. إنّ الكتاب يرينا الإنسان المشعّ في نار الألم، ونحن نفهم الكلمات التي نقرؤها، والتي تعجز عن تحويلنا. ولكنّه من الأَيسر علينا أَن نغيّر مسيرتنا، إن استطعنا محبّة من يحبّون الإنسان.

عندما قدّم «بوذا»[1] صداقته القصوى للإنسان، لم يكرز، فقط،

١ «بوذا» هو مؤسّس البوذيّة في القرن السادس قبل المسيح. وفقًا للتقاليد هو تقمّص «ڤيشنو» التاسع. كان ابن الملك «شوذّادان»، وقد صادف، ذات يومٍ، مريضًا، وعجوزا، وميتًا، فصدمه وأَحزنه اكتشافه لأَصناف شقاء هذه الحياة، فهجر قصره، وزوجته وأولاده. وفي سنّ التاسعة والعشرين، تتلمذ على أَيدي معلّمين روحيّين متعدّدين. وأَخيرًا أشرق عليه وحي الحقيقة، تحت شجرة تينٍ مقدّسةٍ، وتلقّى لقب «بوذا»، ومعناه المستيقظ. وقد علّم ومارس، على نحوٍ خاصٍّ، اللاعنف، والرأفة، ومساعدة القريب.

بالشريعة، بل أَيقظ الحبّ في قلب الإنسان. وفي الحبّ يكمن الفداء الحقّ. إنّ الذين توغّلوا في حبّ المسيح لم يقتصروا على ترويض رذائلهم، والسيطرة عليها، بل حقّقوا أُمورًا مستحيلةً. لقد انطلقوا بعيدًا، مجتازين محيطاتٍ وجبالاً لكي يعلنوا، في كلّ مكانٍ، حبّ الإنسان.

على هذا النحو يوري العظماء شعلة الحياة. لا يجادلون، ولا يكتفون بالإدلاء بآراءٍ، ويخاطبوننا بصفتهم بشرًا.

إنّ دعوة المسيح قد أَضاءت الكثير من الأنوار الصغيرة والكبيرة، وسط البشريّة، وسكبت على الناس حبًّا جمًّا، ملطّفةً آلام المظلومين والمهملين. واليوم، تغشى البسيطةَ الفظائعُ المرتكبة أَثناء أَحداثٍ وحشيّةٍ. وهذا الضباب الكثيف والصفيق يحول دون تعرّفنا من هم للمجتمع منجم فضائل. بيد أَنّ هؤلاء موجودون، مؤكّدًا، وإلاّ لحلّت بالعالم اللعنة، ولأُطفئت كلّ الأنوار المشعّة، ولغرقت البشريّة جمعاء في ظلامٍ دامسٍ.

٧ – علامة يسوع

تعلّم الكتب المسيحيّة أَنّ الله، عندما وافى كي يقيم في منازل البشر، حمل وقر الألم، ووضع بيده إِكليل الوجع على هامته. فالألم، بكلّ ألوانه، هو الثمن الوحيد لافتداء الإنسان. لقد جعل الحبُّ اللّه نفسه يتبنّى ما لا يخصّ سوى الطبيعة البشريّة: أَي الألم. ومن خلال الألم اتّحد الله بالإنسان. ارتضاه طوعًا، وبفرحٍ، وقهره. ذاك هو جوهر الدين المسيحيّ.

وُلد يسوع في زريبة بهائم، ولم يولد في منزل رجلٍ مثقّفٍ، ولا

في قصر ملكٍ، ولا في حاضرةٍ زاخرةٍ بآلاف الكنوز، أو على أَرض مزارٍ مقدّسٍ. ولم يكن له من أَتباعٍ سوى حفنةٍ من الشبّان اليهود كانوا يكسبون لقمة عيشهم من مهنة اصطياد الأَسماك. ويوم أَمر الوالي الرومانيّ في اليهوديّة بصلبه، ولم يلقَ أَمره هذا أَيّة مقاومةٍ، لم تظهر أَيّة علامةٍ مميّزةٍ تُشير إلى أَنّ ذلك اليوم سيكون مباركًا، إلى الأبد، في تاريخ البشريّة.

يومئذٍ زعم أَعداء يسوع أَنّ كلّ شيءٍ قد انتهى، وأَنّ تلك الشرارة النائسة قد ديست، وانطفأت نهائيًّا. ولكن من ذا الذي يقوى على إطفائها؟ إنّ مشيئة اللّه يسوع، المتّحدة بمشيئة الآب لم تُمتْ، وما برحت قوّتها فاعلةً. لقد بدت ضعيفةً، وعابرةً. ولكنّها، بعد أَلفي سنةٍ، ها إنّها ما زالت منتصرةً.

إنّ إنسانًا عظيمًا هبط على أَرضنا كي يعلن مجد الآب. قال: «كونوا كاملين كما أَنّ أَباكم السماويّ هو كاملٌ». وهو باتّخاذه الكائن الأَسمى مثالاً أَعلى لكمالنا، أَرشدنا إلى الهدف الذي ينبغي أَن نسعى إليه. فعلى دربنا الروحيّ أَن يستهدف هذا الكمال غير مكتفٍ بأُفقٍ محدودٍ. وعلى مثال كمال الآب عينه، يتعيّن على الابن أَلاّ يني يجهد في أَن يكون كاملاً، وإلاّ، فهل من وحدةٍ حقّةٍ بين الآب والابن؟

وليس بلوغ كمالٍ في مثل تمام الكمال الذي علّمنا إيّاه يسوع بالأَمر اليسير. فهو، بقوله: «أَحبب قريبَك مثل نفسك»، لم يشأ أَن يقلّل من شأن وصيّته، ولم يكتفِ بقول: «أَحبب قريبك»، بل أَوضح: «أَحببه مثل حبّك لنفسك». وعلى كلّ من يبتغي علاقةً حميمةً مع اللّه أَن يبلغ هذا الحبّ، وسلوك الطريق المؤدّي إليه.

وقال يسوع، أيضًا: «أَحبّ أَعداءك». ولأَنّه أَراد، حقًّا، الصفح عن أَعدائه، لم يوقفه الخوف في منتصف الطريق. ولأَنّه أراد أَن يحبّ أَعداءه، ارتقى بنصائحه حتّى أَوصى بالحميميّة مع الآب، وقال: «من يسألك ثوبك، فأَعطهِ معطفك، أيضًا».

أبناء العالم يعدّون هذه الأَقوال ضربًا من الغلوّ، ويعجزون عن إدراك هذه الغاية العظيمة.

قد يعطي العالم المعطف، فضلاً عن الثوب، إِن وجد في هذا العطاء نفعًا، خلال هذه الحياة الحاضرة. ولكن إِن أَيقن أَنّ العلاقة الوثيقة باللّه هي أَدنى ثمنًا من ضرورات هذه الحياة، فسيكون من العسير عليه وهب المعطف أيضًا.

إِنّ الذين جاؤوا كي يعلنوا للبشر أَنّ لا شيء يعلو على اللّه، أَبوا إِعلان إِلهٍ صغيرٍ، بمستوى رغبات الإِنسان العالميّ الصغرى. وحتّى غاية الشوط لم يتوانوا عن تأكيد أَنّ اللّه سيظلّ أَسمى من كلّ شيءٍ آخر. وبتبليغهم هذه الحقيقة بشغَفٍ وهوًى، وفّروا رجاءً كبيرًا، وأَظهروا لنا إلى أين يمكن أَن يقود درب الإِنسان، ومدى عظمة قدرته على الحبّ والتجرّد.

إِنّ الشرائع الدينيّة تدعم حاجتنا الجوهريّة إلى الاتّحاد باللّه. فبالتزامنا بشريعة النصوص المقدّسة، نمتّن علاقتنا باللّه، ويترسّخ فينا شعار: «إِنّ اللّه حاضرٌ». فعندما ننسّق حياتنا مع معيار نغم هذا الصوت، في كلّ أفعالنا، سيصدح لحنٌ مميّزٌ، يدعوني إلى تمثّل صورة ابن اللّه، والجهر بهذه الحقيقة: «أَنا ابن اللّه». وإِلاّ اختفت من حياتي هذه العلاقة باللّه، وبتّ آكل، وأَعمل، وأَرتاح، لا غير، غير مظهرٍ أَيّ دليلٍ على أَنّ لي أَبًا، في هذا الزمن، وفي العالم اللامتناهي.

أَمّا عندما يُضبط إيقاع حياتنا مع هذا المبدأ، فستدوّي، من خلال أُسلوب أكلنا، وسيرنا، وراحتنا، ونومنا، هذه الحقيقة: «إنّ اللّه حاضرٌ في العالم!».

اللّه يسوع هو الذي أَطلق هذا النغم على الأَرض. فقد كانت أَوتار حياته من الاتّساق، بحيث إنّه، حتّى في غمرة موته الرهيبة، لم يصدر عن تلك الأوتار أَيّ نشازٍ، واستمرّ يعلن: «يا أَبتاه، أنت موجودٌ!».

علينا، نحن أَيضًا، أَن نضرب على هذه الأوتار ذاتها، وأَن نحسن التناغم مع نموذج النغم الكامل الذي أَسمعنا إيّاه يسوع، لكي يرتفع، تلقائيًّا، من صلب أَفراحنا وآلامنا، وما يعترضنا من تجارب، هذا النشيد: «أَيّها الآب، أنت موجودٌ!».

تحت هيمنة الفرّيسيّين، غدا الدين اليهوديّ يعني التقيّد الخارجيّ بالشرائع، والاعتقاد بأَنّ أَكثر ما يُرضي اللّه هو الامتناع عن التعاون مع أَتباع دياناتٍ أُخرى، وعن مشاركتهم الطعام، وبُغض جميع من لا ينتظمون في جماعتهم الخاصّة. وعندما أَمست احتفالات اليهود الدينيّة مجرّد طقوسٍ موقوفةٍ على جماعتهم، عندئذٍ جاء يسوع ليقول لنا أَمرًا ممعنًا في البساطة: إنّ الدين هو واقعٌ داخليٌّ، وإنّ الخطيئة والثواب ليسا مرتبطين بمحظوراتٍ أَملتها شرائع مصطنعة، وإنّ جميع البشر هم أَبناء اللّه، وإنّ الواجب الدينيّ يُنفَّذ بالحبّ، وبمنأًى عن بغض أَيّ إنسانٍ، وبورعٍ مفعمٍ إيمانًا باللّه.

خارج حياتنا الداخليّة، يجسّد العالم مبدأ الموت. أَمّا الحياة، فيستمدّها من وقائع قلبنا الجوهريّة. هذه الحقيقة هي من البساطة بحيث تقبّلها البشر، منذ إعلانها للمرّة الأُولى. ولكن، لاحقًا، عقّدها

آخرون. ولذلك اضطرّ يسوع إلى الاختلاء في الصحراء، والصوم، وارتضاء عقاب الصليب المخزي.

إنّ البشر الكاملين، الذين يعدّون ذواتهم متساوين في ما بينهم، يحقّقون وحدة أَنفسهم مع ذاك الذي يخترق كلّ شيءٍ. أَمّا من يبتغي الانفصال عن الآخرين، والتعالي فوق الجميع، فهو ينفصل، أيضًا، عن اللّه. لذلك سمّت تعاليم «الأوپانيشاد» نفوسًا حكيمةً، ونفوسًا متّحدةً، أُولئك الذين آتت حياتهم ثمارًا. هؤلاء العظماء يحيون بسلامٍ، لأَنّهم متناغمون مع الجميع، ومتّحدون بهم، ومن ثمّ هم متّحدون بالواحد الأَسمى.

وقد أَكّد المسيح هذه المبادئ بقوله: «مثلما يعجز جَمَلٌ عن اجتياز سمّ إِبرةٍ يستحيل الخلاص على الغنيّ». وهذا يعني أَنّ كلّ ما نكدّسه من ثرواتٍ، وأَمجادٍ، إلخ... يفصلنا عن الآخرين، ويعيق وحدتنا مع القريب. وكلّما أَمعنّا في الاهتمام بممتلكاتنا، انتهى بنا الأمر إلى النأي عن سائر البشر.

وفضلاً عن ذلك، كلّما كدّسنا كنوزًا، أَمسينا نفخر باختلافاتنا عن الغير. وبدافع الكبرياء، لا ينفكّ هذا الانفصال يتفاقم، ولا ننفكّ نطلب المزيد. وهذا ما يعزلنا، عزلةً تامّةً، عن الآخرين، ويغلق لنا الطريق صوب الاتّحاد بهم.

ومثلما يتعذّر على الجمل العبور من سمّ الإِبرة، يستحيل على المرء الذي لا يني يُثقل ذاته بالممتلكات، العثور على ممرٍّ في الكون، فينكفئ على ذاته، ويسجن ذاته في ثروته. وكيف لمثل هذا الكائن أَن يتّحد بمن جوهره هو الحرّيّة، ومن يقطن مكانًا من الرحابة بحيث

يستطيع استعياب جميع بشر العالم، كبارًا وصغارًا، وأن يفسح لكلٍّ منهم مكانه الملائم.

إنّنا نلاحظ، من خلال استقراء تاريخ الحركات الدينيّة، أنّ الدين الراغب في إعلان جوهر رسالته، يتحرّر من كلّ قيدٍ، متطلّعًا إلى ما يوحّد البشر حقًّا. وفي حين عجزت سدود الدين اليهوديّ عن درء فيض نسغ الحبّ والورع الذي أعلنه المسيح للملأ، لا ينفكّ دين المسيح يحطّم القيود التي تربط الشعوب بمصالحها، ويستخدم جاذبه المنيع في سبيل تخّطي كلّ العقبات التي تنتجها الخرافات والانقسامات، سعيًا إلى جمع الإنسان بالإنسان.

هل تبتغي أن تحوّل إلى جمالٍ ما هو مريعٌ في الحياة البشريّة؟ انبذ، إذن، عيوب أنانيّتك الستّة[١٤]، وحدّق إلى العظماء الذين يعكسون روعة الشخص البشريّ. تطلّع إلى الحكيم الأصيل، مثل بوذا. كثيرون من الورعين يقرّون، اليوم، بقداسته التي تُنشدها طغماتٌ من الشعراء. وما انفكّت قلوب الصالحين مفتونةً بتأمّل خصاله. يا للنور، وللبهاء، وللقداسة! هذه الصورة الذهبيّة صيغت في أتّون آلامه الرهيبة. ولو هو أظهر هذه الآلام بصفتها شؤونًا شخصيّةً، لأشاح الناس بأبصارهم عن هذا المشهد القاسي. ولكن، منذ البدء، واكب اللّه، إلهُ الفرح، آلامَه. ولذلك تألّقت صورته، ورحبّت بها القلوب، بحبٍّ جمٍّ.

وحدّق إلى اللّه يسوع! إنّه منقطع النظير! وكم من الجراح

١٤وفق الثقافة الهنديّة العيوب الستّة الرئيسة هي: الفسق، الغضب، النهم، الكسل، الكبرياء، الحسد. وقد أضاف إليها الغرب عيب البخل.

والمشاقّ! وكم تتألّق صورته بكلّ آلامه! ولكن إلى جانب هذه الآلام، أحاقت بشخصه، واتّحدت به حتّى الاندماج، القسوة، والبؤس، وخطايا البشر. وكما أنّ نبتة اللوتُس تطهّر الأوحال، طهّر يسوع شقاء الحياة البشريّة، بمجيئه إلى كوكبنا.

... إنّنا نتأمّل ألم العظماء الجسيم، في ملء حقيقته، فلا نرى فيه وجعًا، بل نرى فرحًا.

إنّ البذار الروحيّ الذي هبط من شجرة حياة يسوع في نفس أوروبّا، قد آتى ثمارًا. فما هي طاقة الحياة الكامنة في هذا البذار؟ إنّها تقبّل الألم، تقبّلَ كنزٍ فائق القيمة.

لقد تبنّى عطف الله كلّ الآلام البشريّة حبًّا بالإنسان. وفي أوروبّا تسرَّبت هذه الرسالة، منذ زمنٍ طويلٍ، إلى الأذهان، والطقوس، والأناشيد، وتجذّرت، تجذّرًا من الحميميّة والعمق، بحيث تفرّعت في ما يتخطّى الوعي، حيث تزكو كلُّ البذور البشريّة، في الخفية والصمت. وفي هذا العمق الذي لا يُسبَر له غورٌ، تثوي أُسس كلّ كنوز الإنسان.

ولذلك، نحن نشهد، في أوروبّا، ظاهرةً مدهشةً. فبين الذين يُنكرون، بشفاههم، المسيحيّة، معلنين انتصار المادّيّة، ثمّة من يتخلّون، في وقتٍ ما، عن الثروات، وحتّى عن حياتهم، ويحتملون، احتمالاً بطوليًّا، الألَم والمهانة. ومن الجليّ أنّهم، هم أنفسهم، ومن حيث لا يدرون، يؤكّدون تفوّق الخلود على الموت، ويقرّون بتفوّق الخير على المتعة.

من المؤكّد أنّ المسافرين على متن الباخرة «تيتانيك»، الذين لم يبالوا

بحياتهم الخاصّة، وجهدوا في إنقاذ الآخرين، لم يكونوا، جميعهم مسيحيّين ملتزمين، وأنّه كان، بينهم، بعض ملحدين.

وإلاّ فكيف يمكن أن ينأى بعضهم عن العقيدة التي يؤمن بها شعبٌ بأكمله، ويلتزموا بآراءٍ مختلفةٍ؟ إنّ النسّاك الذين يعيشون وسط شعبٍ، إنّما يمارسون نسكهم من أجل الشعب كلّه. ولذلك، حتّى إن عمدت فئة الشعب الأشدّ فظاظةً – وهي التي تمثّل السواد الأعظم – إلى رشق أولئك القدّيسين بالوحل، فلا أحد يُحرَم من ثمار نسكهم.

لستُ أرى، في بلادنا، من يرتضي أو يقوى على مقاساة كلّ أصناف الآلام، صغيرها وكبيرها، حبًّا بالله. هذه حقيقةٌ لا مفرّ لنا من الإقرار بها، ومهما كانت قبيحةً، ومزعجةً. في عبادتنا نعهد مشاعر حبٍّ، ولكنّنا عاجزون عن تقبّل الألم والتضحية، والخدمة، في الحبّ. وما ندعوه خدمة المعلّم، يختلف عن خدمة الله من خلال المتألّمين والمسحوقين. إنّه يطيب لنا أن ننعم بفرح الحبّ، ولكنّنا نرفض وجعه.

ليس تقبّل الألم الذي يوفّر لنا غنائم هو روحانيّة. بل إنّ الروحانيّة هي التي تتقبّل الألم بصفته تعبيرًا عن الحبّ. إنّ توتّر البخيل الجاهد في تكديس الثروات، مع ما يسبّبه من وجعٍ، هو خالٍ من كلّ شكلٍ من أشكال الكمال. وكذلك هي حال الألم الذي يتقبّله من يرجو، لقاء تقبّله هذا، ثوابًا في الآخرة، وحال من يناضل في سبيل الحرّيّة، فقط حبًّا بالحرّيّة. في هذه الحالات جميعها يتجلّى الشقاء وفقر النفس. أمّا ألم الحبّ، فهو كنزٌ يقوم على حرمان الذات والتضحية، فمن خلاله يقهر الإنسان الموت، ويمجّد قوى الروح، فوق كلّ شيءٍ.

بفضل الألم، نقوى على تخطّي ذواتنا، وعلى أن نصبح جزءًا من الكون. والألم هو الثمن الذي لا مفرّ من أدائه من أجل بلوغ الحقيقة.

إنّ خبرة الألم هي ثروة النفس البشريّة الكبرى. بها يمتحن المرء فضيلته؛ وبقدر ما يلتقي الآخرين، يلتقي ذاته. ولذلك تقول الكتب المقدّسة: «من لا قدرة له على تقبّل الألم لا يقوى على معرفة ذاته معرفةً واقعيّةً».

لقد عمّد الدين المسيحيّ أُوروبّا بحبٍّ يطال الجميع. وبفضل قوّة هذا الحبّ، يصبح الإنسان أخًا لجميع البشر، ويتّحد بهم. وبفضله، أيضًا، لا تنطفئ نار النسك أبدًا، بل يومًا فيومًا، يسهم مئات النسَّاك، الذين يضحّون بذواتهم، في تكديس قدرٍ كبيرٍ من النار في روح الأرض، ومن نار التضحية هذه يتفجّر نسغ خلودٍ، ينسكب في كلّ مكانٍ، ويضفي عظمته على الفنّ، والعلم، والتجارة، والسياسة. إنّها مصنعٌ لا يُنتج أسلحةً معدنيّةً، بل، فقط، أُمورًا طاهرةً وحيدةً. هذه النار المقدّسة هي منعةُ الإنسان الروحيّة، وعظمته.

اليوم هو عيد ميلاد يسوع. وها قد فرغنا من الاحتفال به، الذي أقمناه في زاويةٍ من غرفتنا. لم نشعر بأنّنا وحيدون. فعندما نقيم على العرش من هو إله العيد، تنتفي الحاجة إلى أيّ شيءٍ آخر، من أجل الاحتفال. لقد عبدناه ونلنا بركته. صلّينا بكلّ كثافة قلبنا، طارحين جانبًا رغباتنا، ملتمسين أن تسود مشيئة المسيح حياتنا، وأن تملأها صدقًا وأصالةً، كي نستطيع أن نتقبّل، بقلبٍ متواضعٍ، كلّ تضحيةٍ، وكلّ ألمٍ.

وقد التمسنا أن يظلّ هذا الدعاء منزّهًا من كلّ زيفٍ...

هذا الإنسان الذي وُلد في مثل هذا اليوم، ينبغي أن يولد اليوم أيضًا، في قلبنا، وأن يكون فيه الولد الطاهر الرائع، ابن الآب، والفقير الأعزل.

إنّنا نسأله، منذ زمنٍ طويلٍ، أن يمنحنا الإنسانيّة الأوفر سموًّا. هذه هي صلاتي، في مواجهة المصاعب، والفضائح، وعمى البصيرة الأكبر. ولن تكون هذه الصلاة باطلةً.

هل من لا يلحظ قِدْرًا كبيرةً موضوعةً فوق النار؟ فقد تكون النار ضئيلةً، ولكنّ قدرتها جسيمةٌ.

هذا الصباح مَثَلْنا في حضرة يسوع، وهو، بصفته الأخ الأكبر لجميع البشر، سأل الآب: «فليأتِ ملكوتك!». هذه الصلاة تفوَّه بها، أيضًا، حكماؤنا، بعبارةٍ أُخرى، قائلين: «تجلَّ».

وما لم نسعَ إلى تحقيق صلاة البشريّة جمعاء هذه، سيكون الخبز اليوميّ الذي نتناوله خبزًا مسروقًا، وستمسي حياتنا دَيْنًا لم يوفَ، وسنظلّ مدينين.

لقد كرّمت المسيحيّة الإنسانَ تكريمًا جمًّا. فالذي يعبده المسيحيّون قد اتّحد بالطبيعة البشريّة، عندما تجسّد. ولذلك استطعنا، نحن، أن نلاحظ أنّ المسيحيّين الحقيقيّين قد أشاعوا، في كلّ الأصقاع، حبّ الإنسان للإنسان.

ولئن ارتأينا، أحيانًا، أنّ عقيدة المسيحيّين يشوبها بعض عيوبٍ، غير أنّنا نجمع على الإقرار بأمرٍ واحدٍ، على الأقلّ، هو التفاني من أجل القريب. وهذا هو موضع إكبارٍ لأيّ دينٍ.

لقد اكتشفتُ، حقًّا، إنسانيّةً رائعةً، حيث وجدتُ عظمة هذه الديانة، سواءٌ في الآثار الأدبيّة، وفي سلوك الناس، حيث ينتفي الشقاء، وتزهو حضارةٌ رائعةٌ، تتألّق متخطّيةً الفهم الخاطئ، والمصالح الشخصيّة.

ابن الإنسان

مئات السنين كرّت،
منذ يوم قدّم المسيح حياته الخالدة
في كأس الموت،
من أَجل من يزدريهم العالم،
ومن أَجل من يُغفلهم الأَنام.
وها هوذا، اليوم، ينحدر ثانيةً
من المنازل السماويّة،
إلى منازلنا الفانية.

لقد تفقّد شؤون الإِنسان،
فألفاه خاضعًا لسياط الخطيئة،
ولوابل السهام،
ضحيّةً لحراب الكبرياء
ولخناجر الخداع،
ولسيوف القسوة والفساد،
التي ما برحت تتراقص،
بارقةً، لّماعةً.

في المصانع والأَفران
التي ترسل أَدخنتها السوداء،
تُسَنّ الشفار،
ويتفجّر الشرار،
محدثًا صفيرًا.

وقد أُعدّت أَسلحة موتٍ جديدةٌ مريعةٌ،
وأيادي القتلة متأهّبةٌ لانتضائها، لألاءةً.
وقد حفر عبدة القوّة هؤلاء
أَسماءَهم عليها، وطبعوها بأظافرهم الحادّة.

والمسيح يضمّ يديه على صدره،
مدركًا أَنّ لحظة موته
التي لا نهاية لها، لم تكتملْ بعدُ.
فعلى موائد العلم،
ما انفكّ الإِنسان يُعدُّ سهامًا أُخرى،
كي يطعن بها كلّ مفصلٍ من جسده.
والذين ضربوه، قديمًا، في ظلّ الهيكل،
ظهروا، ثانيةً، حشودًا، هاتفين:
«فليُقتَل! فليُقتَل!».
وابن الإِنسان، رازحًا تحت وقر الأَلم،
يتطلّع صوب السماء، ويهتف:
«يا اللّه، يا إِله البشر،
لِمَ تخلّيت عنّي؟».

إِنّ الذين سبق فقتلوه
بموافقة الإمبراطور،
ظهروا، من جديدٍ، في حقبتنا.
لقد وافوا الهيكل، في زيّ مؤمنين،
جائرين، ومطالبين الجند الجلاّدين:
«اقتلوه، اقتلوه!».

وبصيحاتهم، تمتزج أَناشيد عبادةٍ.
وابن الإِنسان،
بـأَلمٍ هـاصرٍ، يهتف:
«يا اللّه، أَبعد عنّي هذه الكأس المرَّة،
المترعة سمًّا.
أَبعدها!».

معبد الطفل
(مجتزأَةٌ من قصيدةٍ طويلةٍ)

علماء الفلك أَعلنوا:
«لا يمكن للنجوم أَن تخطئ!»
هنا انتهى مشوارهم،
فتوقّفوا، وانحنوا خاشعين،
عند حافّة الطريق، قرب نبع ماءٍ،
يتفجّر منه شعاع نورٍ.

واستيقظ الفجر، فوق كلّ شيءٍ،
في انفجار أَناشيد ممزوجةٍ ببسماتٍ ودموعٍ.
ها هنا كوخ أَغصانٍ جافّةٍ،
تحت النخلة الصغيرة،
غارقٌ في صمتٍ وسكونٍ
يستعصيان على الوصف.
وعلى عتبة الباب،
شاعرٌ قادمٌ من شواطئ محيطٍ مجهولٍ

يهتف، منشدًا:
«أيتها الأُمّ، افتحي الباب!».

من تحت الباب الموصد،
يتلألأ شعاعٌ من أَشعّة شمس الصباح،
وفي شرايين كلٍّ من الأَشخاص، المجتمعين هنا،
تنبض رسالة الخليقة الخالدة هذه:
«أيّتها الأُمّ، افتحي الباب!».
ويُشرع الباب:
الأُمّ جالسةٌ على حصيرةٍ من قشٍّ،
ممسكةً الطفل في حضنها،
مثل نجمة الصبح في أَحشاء الفجر.
وعلى رأس الطفل،
يستقرّ شعاع شمسٍ،
كان ينتظر عند الباب.
ويلامس الشاعر أوتار كنّارته،
فيتصاعد إلى السماء هذا النشيد:
«فلينتصر الإِنسان،
فلينتصر الطفل الوليد
الذي سيحيا إلى الأبد!».

ويهبط الجميع راكعين:
الملك والمتسوّل،
القدّيس والخاطئ،
العالِم والأمّيّ،

وبصوتٍ جهوريٍّ يهتفون جميعهم:
«لينتصر الإنسان،
لينتصر الطفل الوليد!
الذي سيحيا إلى الأبد!».

داخل الهيكل وخارجه

داخل الكنيسة، يسود الصمت والرقّة،
ويتسرّب نورٌ عذبٌ من خلال زجاج النوافذ، متعدّد الأَلوان.
ونشهد الربّ جالسًا على عرش عدله.
ولكنّ وجهه، وجه الحاكم المتوّج في مجده الجمّ،
يقطر حزنًا وأَلَمًا. ولكأنّه يسائل:
«أَلا يعني لكم هذا شيئًا، أيّها المارّة؟
انظروا وشاهدوا:
هل من أَلمٍ يضاهي أَلمي؟».
وينتهي الاحتفال المقدّس بطقوس التقدمة،
وفي قلوبنا يستيقظ سموّ مجد حبّ الربّ.
ويُشيعُ في قلبنا السلامَ والفرحَ قولُه:
«تعالوا إليّ أَيّها المرهَقون،
الرازحون تحت وقر أَعبائكم،
تجدوا لديّ العزاء!».

مدى لحظةٍ تذوّقنا، في فردوسه، طعم حضورٍ رفيقٍ.
وسمعتُ: «ارفعوا قلوبكم نحو العلاء!».
فأَجبت: «يا ربّ، لقد رفعناها صوبك».

وفي الخارج، على الدرب المؤدّي من الكنيسة إلى المنزل،
شاهدتُ، ثانيةً، طوابير المتعبين،
الذين سحقهم الألم،
الذين لا عهد لهم بفردوسٍ، ولا يعهد قلبهم، في العلاء، خلاصًا.
ففي خليقة الله الرائعة،
لا فرحَ، ولا حماسَ، ولا سلامَ، ولا راحةَ،
بل عناءٌ مقيمٌ:
يومًا فيومًا يمعنون في معاناة الجوع والظمإ،
مُرتَدين الأَسمالَ البالية،
قاطنين بيوتًا متداعيةً،
ولا غذاءَ يقوت أَجسادهم.
هنا وجه الربّ الذي يمزّقه الألم،
يتألّق بحكمٍ سخيٍّ.
إنّه يلتفت نحونا، ويعلن، في تنهّدةٍ عميقةٍ:
«كلّ قسوةٍ تطال أَصغر إِخوتي هؤلاء،
إِنّما أَنتم، نحوي أَنا، تمارسونها».

٢ – صلواتُ شاعرٍ

صلوات

تمهيد

عُرف «رابندرات طاغور» بنزعته الإنسانيّة الشاملة، وبانتمائه إلى البشريّة جمعاء. وقد تأثّر بالحكمة البوذيّة العريقة، وبتعاليم يسوع السامية، وانتدب ذاته لمهمّة تأكيد تفوّق الروح، ووحدة البشر ومساواتهم، وإيقاظ وعيهم على كونهم ملك الله، كلّيّةً، ما يوجب عليهم عبادته وخدمته من خلال أبنائه، إخوتهم في الإنسانيّة.

وهو، مع معاناته سلسلةً من الفواجع المؤلمة، أفلح في الانبعاث من رمادها، وظلّ واثقًا بالحياة، مؤكّدًا أنّ فرح الوجود هو أحد مقوّمات الحياة الأساسيّة.

وقد جسّد طاغور هذه القناعات في عدّة دواوين شعريّة، ولا سيّما في الديوان الذي أطلق عليه عنوان «جيتنانجالي» (Gitanjali) ومعناها: «التقدمة الملحميّة»؛

وكان قد نظم هذه الدواوين باللغة البنغاليّة، ولمّا طُلِب منه وضعها بمتناول العالم الغربيّ، قام بترجمتها، بنفسه، إلى الإنكليزيّة. وقد وضع الشاعر البريطانيّ الكبير «ييتس» (G-B Yeats) مقدّمةً لهذه الترجمة التي لاقت من التقدير ما استحقّ لها جائزة «نوبل» للآداب، عام ١٩١٣. من هذه المجموعات الشعريّة، اخترنا هذه الباقة من الصلوات، وهي مناجاةٌ لله، طواها الشاعر على خلجات قلبه، وتوسّلاته، وتمنّياته للبشريّة، وهي، في الآن عينه، إشادةٌ ببساطة الحياة اليوميّة، ودعوةٌ إلى تقديسها، والسموّ بها.

قد شبّه البعض هذه الصلوات بالمزامير، غير أنّها، على نقيض المزامير، منزّهةٌ من العنصريّة، والعدوانيّة، ونزعة الانتقام الشرسة. وشبّهها آخرون بـ «اعترافات» القدّيس أوغسطينُس، ولكن، مع أنّها دونها عمقًا لاهوتيًّا وصوفيًّا، هي أكثر منها انفتاحًا على جمالات الوجود، ومباهجه البريئة.

ولا ريب أنّها، في بساطتها وعذوبتها، ترقى بالنفوس إلى منبع كلّ نورٍ وبهاءٍ، وتهزّ الأذهان دهشةً وتأمّلاً، وتُشيع في القلوب دفئًا إنسانيًّا منعشًا.

تقبّلني، يا اللّه

تقبَّلْني، يا اللّه، يا عزيزًا على قلبي،
رحِّبْ بي، وتقبّلْني،
كما أنا، في هذه اللحظة،
وأنسِني الأيّامَ التي تيتّمتُ فيها عنكَ.
واحملني، يا إلهي، في هذه اللحظة،
بين ذراعَيْكَ، لاطيًا فيكَ،
في مساحة نورِك الحميمةِ والرحبةِ.
لقد هِمْتُ في العالم، شريدًا، متعقّبًا صوتًا فَتَنَني نشيدُه،
ولكنّه أفضى بي إلى التيهِ، ولم يبلغْ بي، يومًا، أيَّ مرفإٍ.

أرجوك أن تتيحَ لي الإقامة في سلامكَ،
ودعني، اليوم، أرتشف أقوالَكَ،
وأُغذّي نفسي بالصمت.
ولا تُعرِض عنّي،
ولا تُشِحْ أنظارَكَ عن الأسرارِ الكامنةِ في طوايا قلبي،
بل طهّرْها بلهيبِكَ، وأضرِمْها، عسى أن تستضيءَ بنورِكَ.

*

* *

سؤالٌ مطروحٌ على اللّه

منذُ الأزَل، يومًا فيومًا، وعامًا فعامًا، أوفدتَ رسلَكَ إلى العالم الذي لا يرحَم،
فنشروا أقوالَك هذه:
«إصفحوا عن كلّ شيءٍ؛ أحبّوا بعضُكم بعضًا،
«طهّروا قلوبَكم من لوْثاتِ الحقدِ القاتلة».
هذه الأقوالُ الموقّرةُ إلى الأبدِ، لا يمكنُ أن تُنْسى.

غير أنّني، في يومٍ شيطانيٍّ،
طردتُها من باب العالم الخارجيِّ، ولم أدركْ سببَ خيانتي،
وانصرفتُ عنها بلا سببٍ.

ألم أشهد الخبثَ الدفينَ الذي يصعقُ المُعْدَم بحجَّة الحقّ، وبدافع الرِّياءِ؟
ألم أسمع صوتَ العدلِ الوحيدَ، مذرّفًا دموعًا صامتةً على الإهانات التي يرتكبُها ذوو السُّلطانِ؟
ألم أرَ الاحتضارَ المريعَ الذي هدرتْ فيه الشبيبةُ حياتَها، وكيف ارتطم جنونُها بجدرانِ قلوبٍ من حجرٍ، مُصْفِرةٍ من الإحساس؟

إنّ صوتي يختنِقُ، اليومَ، وأناشيدي تخرسُ،
فهنا يرقدُ عالم أحلامي، مُقيَّدًا، مدَمَّرًا، وسطَ دوّامة الأراجيفِ السوداءِ.
وإنّي ألتفتُ إليكَ،
والدموعُ تزدحمُ في مآقيَّ، متوسِّلاً، طارحًا هذا السؤالَ البغيضَ:
«هل غفرتَ لهم، بل هل أحببتَهم، يومًا،
أولئك الذين دنّسوا هواءَك، وأخمدوا نورَكَ؟».

تحيّاتٌ

تحيّةٌ لكَ، يا رفيقَ الدربِ،
إنّ المسافر، في طريقه، يحيّيك؛
تحيّةً لك، يا إلهَ قلبي المحطَّمِ،
يا إلهَ المغادرات، والدروبِ المهجورةٍ،
إلهَ الخسائر والنقْصان،
إلهَ الفراغِ، والصمتِ الرماديّ المُنبَعثِ من النهارِ المائل إلى المغيب.
إنّ صاحب البيت المتداعي يحيّيك.
تحيّةً لكَ، يا ضياءَ الصبح الوليد،
ويا شمسَ النهار الذي لا ينتهي.
يا لحظةً أبديّةً، إنّ الإنسان الذي لا يموتُ له رجاءٌ يحيّيكَ.
تحيّةً لكَ، يا دليلي،
منّي، أنا عابر السبيل.
إنّ السائرَ على دربٍ لا نهايةَ له يُحيّيكَ.

*

* *

الموت

الموتُ، خادمُك، عند بابي.
الليلُ حالكُ الظلام، وقلبي مُفعمٌ رعدةً.
ومع ذلك، سأنهض، وآخذ مصباحًا، وسأفتح نافذتي،
كي أرحّب به،
فرسولك هو الذي يقرع بابي، اليومَ.
سأُكرِّمُه، ضامًّا يديَّ، والدموعُ تغمرُ وجهي؛
سأكرِّمُه، وسأطرحُ، عند قدَميْه، الكنز الثاويَ في قلبي.

*
* *

أتوسّلُ إليكَ

أتوسَّلُ إليكَ (يا إلهي) أن تهَبَني جرأةَ الحبِّ القصوى.
هَبْني جرأةَ القولِ، والعملِ، والمعاناةِ، وفقَ مشيئتِك.
هبني جرأةَ التخلّي عن كلِّ شيءٍ، أو أن أعاني التخلّي.
وقوّني بضلالاتي، وبالأخطار المُحدقةِ بي، وكرِّمني بالألم.
وساعدْني على تسنّم القمّة، صوبَ حالة الوجود،
حيثُ كلَّ يومٍ يقدِّم لمشيئتك ضحيّةً.
هبني ثقةً ترى في الموتِ حياةً، وفي الهزيمةِ انتصارًا،
وتستشفّ القوّةَ الكامنة في الجمال الزائل،
والكَرامة المتجلّية في المعاناةِ،
والتي تتقبّل الضربة، ولا تساورُها رغبةٌ في الردِّ عليها بمثْلها.

أَمسك بيدي

أنقذْني من أشباحي،
أنقذْني من الغرقِ، ومن فوضى أيّامي،
يا إلهي.

فالليلُ حالكُ العتمةِ،
وحاجُّكَ مُبْتلًى بعمًى صفيقٍ.
فأرجوكَ أن تمسكَ بيدي.
أنقذْني من القنوطِ،
وأنعشْ، بنارِكَ، شعلةَ عنائي النائسةَ.
أيقظْ قوايَ الخائرةَ، التي خدّرَها النعاسُ،
ولا تدعْني أدأبُ على اجترارِ خسائري.

إجعل الطريقَ يُنشِد،
والدربَ يشدو،
لعلَّ كلَّ خطوةٍ أخطوها تحدِّثُني عن الغدِ،
وعن البيتِ الذي ينتظرُني هناك، في غايةِ المشوار.
فالليلُ حالكُ العتمةِ،
وحاجُّكَ مبتلًى بعمًى صفيقٍ،
فأتوسّلُ إليكَ أن تُمْسكَ بيدي.

*

* *

أشدّهم فقرًا

هنا هو موطئ قدمَيْكَ
حيث يُقيم الأشدُّ فقرًا، وضِعةً، وضياعًا.
عندما أُحاول السجود أمامكَ،
لا أجدُ سبيلاً إلى التصاغُر بقدرِ ما أنت تتصاغرُ،
حتّى الوهاد التي تضع فيها قدَمَيْكَ،
وحيث يقيمُ الأشدُّ إملاقًا، وضعةً، وتيهًا.
تعجزُ الكبرياءُ حتّى عن وطءِ الطريقِ الذي أنت تسلكُه،
في زيّ التواضع،
حيث يُقيمُ الأشدُّ فقرًا وضعةً، وضياعًا.
ولا يجدُ قلبي السبيلَ إليكَ،
في المكان الذي تقيمُ فيه مع الوحيد،
وحيث يعيش الأشدُّ فقرًا، وضعةً، وضياعًا.

*

* *

يا صديقي

جئتُكَ كي تَلْمسَني، قبلَ مباشرةِ نهَاري،
وكي تُلهبَني بنظرتِكَ، بضعَ لحظاتٍ.
إسمح لي أن أستصْحبَ إلى عملي يقينَ وجودِكَ الدائمِ إلى جانبي، يا صديقي،
واملأْ بموسيقاكَ روحي، كي يُرافِقَني نَغَمُها في صحراء النشاز.
ولتُدْفئْ أشعّةُ حُبِّكَ ناصِيةَ جبَل أفكاري، وتستقرَّ في وادي حياتي، حيثُ ينضُجُ الحصادُ.

حانتْ ساعةُ الجلوسِ بجانبِكَ

تعطَّفْ، يا اللّه، وأتِح لي هُنَيْهةَ راحةٍ وجلوسٍ بجانبِكَ،

فبوِسعِ العملِ الجاري أن ينتظرَ.

عندَما يغيبُ وَجهُكَ عن نظري، لا يعهدُ قلبي راحةً، ولا هدنةً؛

ويغدو عمَلي كدًّا مفروضًا، في صحراءَ من الجهدِ، لا نهايةَ له، ولا هدَفَ،

ولا وعدَ باكتمالٍ.

وها قد راودَني الصيفُ، اليومَ، من النافذة، بغمْزَةِ همساتِه وتنهّداتِه،

وها إنّ أسرابَ النحلِ دائبةٌ على مغازلةِ أزاهيرِ الحديقةِ وانتزاعِ مؤُونَتِها من رَحيقِها،

وها قد حان أوان الاستكانةِ، والإنشادِ، والجلوسِ بجانبِكَ، وجهًا لوجهٍ،

وتقديسِ حياتي، في هُدوءِ هذا الصمتِ الغامر.

*

* *

حبّةُ الذُّرَةِ الصُّغرى

كنتُ ماضيًا أستعْطي، من بابٍ إلى بابٍ، في أحياء القريةِ، عندما لاحتْ، من بعيدٍ، عربةٌ مذهَّبةٌ، مثلَ حلمٍ بهيٍّ.

فذُهِلتُ بحضورِ ملكِ الملوكِ،

وتوهّجتْ آمالي وأحلامي، ظانًّا أنّ أيّامَ بُؤسي قد ولّتْ، متوَقّعًا هباتٍ عفويّةً، وثرواتٍ منثورةً في ترابِ الطريق.

وتوقّفت العرَبةُ أمامي، وحطّ نظرُكَ عليّ، وانحدَرْتَ باشًّا، وقد افترَّتْ شفتاكَ عن بسمةٍ. وخُيِّلَ إليَّ أنّ فرصة حياتي قد سنَحتْ أخيرًا، ولكنّكَ، على حينِ غرّةٍ، مددتَ يمينَك، وقُلْتَ: «ماذا لديكَ تعطينيه؟»

ويا لتلك اللفتةِ الملكيّةِ المدهشةِ: أن تستعطيَ شحّاذًا!

اضطرَبتُ، وحِرتُ، قبل أن أوطّنَ عَزمي، وأُخرِجَ، بتؤدةٍ، من جرابي، حبّةَ ذرةٍ موغلةً في الصغَر، وأعطيكَ إيّاها.

وكم كانت دهشتي، في غاية النهارِ، عندما أفرغت جرابي، فوجدتُ، بين كنوزِه الهزيلة، حبّةَ ذهبٍ موغلةً في الصِّغر! فذرّفتُ دموعًا مريرةً، ندَمًا، لأنّي لم أجرؤْ على إعطائكَ كلَّ ما أملك.

*

* *

نجمتي القطْبيّةُ

اتّخذتُ منكَ نَجمةَ قطْبي، فلن أُضيع طريقي أبدًا، أثناءَ رحلةِ حياتي.

حيثُما اتّجهَتْ خُطايَ، أنتَ حاضرٌ، ناثرًا عطاياكَ من حوْلي.

وفي كلِّ حينٍ، أرى وجْهَكَ نُصْبَ عيْنيَّ.

ولَئِنْ ضَلَلتُ، وفقدْتُ الرُّشدَ،

وإنْ راوَدَتْ قلبي تجربةُ الشُّذوذ،

فحسبُ نظرةٍ منكَ أن تجعَلَه يخجلُ من انحرافِه.

*

* *

حكمةٌ

تسنّمتُ القمّةَ، ولكنّني لم أجدْ ملاذًا على مُرْتَفَعات الشُّهرة الشاحبةِ والعاريةِ،

فاقتدْني، يا دليلي، قبلَ أن يغيبَ النورُ عن وادي السكونِ، حيثُ ينضُجُ حصادُ الحياةِ، حكمةً ذهبيّةً.

*

* *

حضورُكَ

لسْتُ أدري، مُنذُ متى تقْتَربُ، أنتَ، منّي كي تَلْتَقِيني،
فشمسُكَ ونجومُكَ عاجزةٌ عن إخفائِكَ،
لطالَما سمِعْتُ، في الصباحِ وفي المساءِ، وَقْعَ خطواتِكَ، ووافى رسولُكَ إلى قلبي، سرًّا، كي يدعوَني.
ولستُ أدري أيَّ اضطرابٍ ينتابُ حياتي، اليومَ،
ولمَ تجتاحُ قلبي رِعشةُ فرحٍ.
ولكأنّه قد حانَ أن أُنهيَ عمَلي، فقد تنسَّمتُ، في الجوِّ،
أريجَ حضورِكَ المُشبَعَ خفرًا وعذوبةً.

*
* *

اسمكَ

سأتلفّظُ باسمِكَ، وحيدًا، في ظلّ أفكاري الصامِتةِ،
سأتلفّظُ باسْمِكَ، بلا كلامٍ، محاكيًا ولَدًا يُنادي أُمَّه، مئةَ مرّةٍ،
لأنّه يسعد بقول: «ماما»!

*
* *

كنوز

أعلمُ أنّه سيَحينُ يومٌ تُغمِضُ فيه عيناياَ عن مشهدِ هذا المنزلِ الأرضيِّ، وتهجُرني الحياةُ، بصَمتٍ، مُسْدلةً الستارةَ عن المسرح.

وفي العلاءِ، ستبقى النجومُ وفيّةً، مُواصلةً تألّقَها، في قُبّةِ السماءِ، وسيواصلُ الفجرُ انبلاجَه، والساعاتُ تُواصلُ تدافُعَها تدافعَ أمواجِ البحر، جارفةً المسرّاتِ والشدائدَ، والهجماتِ وردودَها.

وما إن تراوِدُني هذه الخواطرُ، حتّى يتحطّمَ سدُّ اللحظاتِ، ويتراءى، على ضوْءِ الموْتِ، عالَمُكَ الخاصّ، وكنوزُه المنثورةُ،

فأتبيَّنَ كم فاخرةٌ هي أوْضعُ منازلِ عالِمكَ، وكم ثمينٌ هو أتعسُ وجودٍ فيه، وكمْ باطلةٌ هي خيراتُ هذه الدنيا التي اشتهَيْتُها واقتنَيْتُها.

فلتذهبْ كلُّها،

ولأَعْلَقْ كَلَفًا، بعدَ الآن، فقطْ بكلّ ما سَهَوتُ عنه هنا، بل بما ازدَرَيْتُه!

*

* *

رحلتي

قلتُ في سِرّي: ها قد دَنَتْ رِحْلتي من غايَتِها، وبَلَغْتُ تُخُومَ طاقاتي، وسُدَّ الطريقُ في وجهي، وأشرفَتْ مؤوناتي على النفادِ، وحانتْ ساعةُ اعتكافي في عتْمةٍ خرساءَ.

ولكنّني اكتشفتُ أنّ لا عهدَ لمشيئتِك، فيَّ، بحُدودٍ. فها إنّ أنغامًا جديدةً يُوَلّدُها القلبُ، تخلِفُ الكلماتِ العتيقة التي انطفأتْ على لساني.

وحيثُ امّحَتْ آثارُ الماضي، تراءَتْ بلادُ روائعَ جديدةٍ.

*

* *

كرى

في لَيْل التّعب، هَبْني أن أستسلمَ للسُّهادِ، طاردًا فكرةَ الكِفاح، مرتاحًا فيكَ، وواثقًا.

هبْني ألاّ أُجهدَ فكري المُضَنّى، في إعداد طقوسٍ لعبادتِك.

فأنت من يُسدِلُ غطاءَ الليلِ على عيونِ النهارِ الكليلةِ،

كي يُعيدَ له صفاءَ رؤْيَتِه، ونضارتِه، وسَهَره.

*

* *

اللّه هنا

دَعْ عنكَ إنشادَكَ، وترانيمَكَ الرّتيبةَ، وكَرَّ حبّات سُبْحَتِكَ! فمنْ ذا الذي تزعَمُ تكريمَه، في هذه الزاويةِ المنعزِلةِ من مَعبَدٍ موصد الأبواب؟

افتحْ عيْنَيْك، تَرَ أنّ اللّه ليس هنا أمامَك.

بل إنّهُ هنا، حيثُ يحرُثُ الفلاّحُ أرضَه الصلبةَ، وعند حافّة الطريقِ حيث يكد النحّاتُ في نَحْتِ الحَجَرِ. إلى جانبِ هؤلاءِ يُقيمُ اللّه، تحتَ شمسٍ من هجيرٍ، أو تحتَ وابلٍ مِدرارٍ، وحيثُ يلوِّنُ ثوْبَه العرقُ والترابُ.

فاخلَعْ، أنتَ أيضًا، مِعْطَفَ الوَرَع، وانحدِرْ مثلَهُ إلى تراب الأرض.

الخلاصُ؟ أينَ تزعَمُ وجودَ الخلاصِ؟ فقد ارتبَطَ اللّه، طوْعًا، بقيودِ الخليقةِ، وتعلّقَ بنا إلى الأبد.

فانْسَلِخْ عن تأمّلاتِكَ، وأَعْرِضْ عن الزهور والبَخورِ. ولا بأسَ إن تمزّقت ثيابُكَ وتلوَّثَتْ. فبكدِّكَ وعرقِكَ ستلتقي اللّه، وتمثُلُ أمامَه مثولاً كريمًا!

*

* *

تحيّةٌ

أُحيّيكَ، يا إلهي، ولْتُسْفَحْ كلُّ مشاعري من خلالِ هذه التحيّةِ حتّى تلْمَسَ قدَمَيْكَ!

مِثلَما تعنو سحابةٌ مُثقَلَةٌ بالمطر، تحْتَ وِقْرِ العاصفةِ القادمةِ، فلْيَنْحَنِ روحي، عندَ بابِكَ، كي يُحيّيكَ!

ولْتتجَمّعْ أناشيدي، وتتّحدْ في ساقيةٍ واحدةٍ، تَتَدفّقُ صَوْبَ بحرِ صمْتٍ يُحيّيكَ، يا إلهي!

وكما ترحَلُ أسرابُ الطيورِ المهاجِرَةِ، ليلَ نهارَ، صَوْبَ موْطِنِها الجَبَليِّ، فَلْتَكُنْ حياتي كُلُّها رِحلةً واحدةً، قاصدةً مسكنَها الأبديَّ. ولْتَكنْ مسيرةً كُبْرى تحيّيكَ، يا إلهي!

*

* *

عابرُ السبيلِ الوحيدُ

بِخُطًى مكْتومةٍ تسيرُ، يا إلهي، صامتًا كالليلِ، في ظُلمةِ المطر المنْهَمِر، وبمنأًى عن أنظار الفضوليّين.

لقد أغمض الصباح عيْنَيْه، وأصمّ أُذُنَيْه عن نِداءاتِ ريحِ الشرقِ المُلحّة، وأسدل قناعًا صفيقًا على الجوّ المستيقظ.

وكتمت الغاباتُ الرحبةُ أناشيدَها، وأُوصِدت الأبوابُ في وجه عابر السبيل. وأنْتَ تسير وحيدًا، في الشارع المُقفِر.

فيا وحيدي، يا صديقي الغالي، إنّ أبوابَ مسْكِني مُشرَعةٌ لكَ، فلا تعبُرْ عُبورَ حُلمٍ.

صانع الكون

وحده اعتلان لانهائيَّتِكَ في صميم كلٍّ منّا هو أبديُّ الجِدّةِ والجمالِ. هو، وحدَه، يُفرِغُ معنًى على كيانِنا، عندما نتواصل مع نبضاتِكَ، وعندما تتردّد أصداءُ الكونِ كلِّه في نفسِنا. وحينئذٍ، فقط، نكونُ بشرًا أحرارًا.

فأنتَ، يا صانعَ الكوْنِ، املأني بفيضِ طاقتِك الذي لا يُقاوَم، مثلَ اندفاع ريح الشمالِ في الوديان، وقتَ الربيع. وليطهِّرْ ساحةَ الحياةِ البشريّةِ.

ولتنْبَثِقْ قدراتُنا الجديدةُ، ولتكتَمِلْ، وتزدَهرْ بلا نهايةٍ، مثلما تُطلعُ البذرةُ الورقةَ، والزهرةَ، والثمرةَ.

*

* *

كلمتي الأخيرةُ

فلْتَكُنْ كَلِمتي الأخيرةُ هي هذه: إنّي أُومنُ بحُبِّكَ، يا الله!

*

* *

قبضةُ يدِكَ

دَعْني أسألكَ، (يا إلهي)، لا إعفائي من المخاطرِ، بل مواجَهَتَها بلا خوفٍ.

دَعْني أسألكَ لا تلطيفَ محنتي، بل جرأةَ تخطّيها.

إجعلْني أعتمدُ على صُمودي، لا على حُلَفاءَ، في معركة الحياةِ.

دَعْني أتَوسّل إليكَ، كي أُحرزَ حُرِّيَّتي.

هَبْني ألاّ أُنْكِرَ جميلَك، بل أن أعترِفَ بفضلِ رأفتِكَ، في كلِّ نجاحٍ أُحرِزُه،

وحينَ أكبو، فلْتُنْقِذني قبضةُ يدِكَ.

*

* *

أنت لي كلُّ شيءٍ

أَبْقِ لي، فقط (يا إلهي) الجزءَ منّي الذي يُمكّنُني من أن أدعوكَ: «يا كلَّ شيءٍ لي».

وأَبقِ لي، فقط، جزء الإرادة الذي أستطيعُ به تلَمُّسَ حضورِكَ من كُلِّ جانبٍ، واللُجوءَ إليكَ في كلّ أمرٍ، وتقديمَ حُبّي لكَ في كلِّ وقتٍ.

أَبقِ لي، فقط، الجزءَ منّي الذي أعجزُ به، دائمًا، عن إخفائِكَ.

أَبقِ لي، فقط، جزءَ قَيْدي الذي يربِطُني بمشيئتِكَ، ويُبلّغُ مقاصدَكَ لحياتي، فهذا الجزءُ هو رباطُ حبِّكَ.

حبُّكَ

فلْيستخدمْ حبُّكَ صوتي، وليستقرَّ في صمتي!
فلْيَخترقْ قلبي، ويتسلّلْ إلى كُلِّ حركاتي.
فلْيتألّقْ كالنجومِ في ظلامِ نوْمي، ولْيُشرِقْ في يقظتي.
فلْيَلْتَمِعْ كاللهَبِ في رغباتي، ولْينتَشِرْ في كلِّ تيّاراتِ حبِّي.
واجْعَلْ حياتي تُدوّي بحبِّكَ، مثلما تبعثُ القيثارةُ بنغماتِها الخاصّةِ.
وتردُّ لك الحبَّ، عندما ترتدُّ حياتي إليكَ!

*

* *

حياةُ حياتي

يا حياةَ حياتي، سأجهدُ، دائمًا، كي أحفَظَ جَسَدي طاهرًا، لأنّي موقنٌ أنّ لمستَكَ المُحْيِية قد حطّت على كلّ أعضائي.

سأجهدُ، دائمًا، كي أقِي أفكاري من كلِّ ضلالٍ، لأنّي موقنٌ أنّكَ، أنتَ، الحقيقةُ التي ولَدَتْ نورَ العقلِ في فكري.

سأجهدُ، دائمًا، كي أُحرِّرَ قلبي من كلِّ خُبثٍ، وكي أُبقيَ حبّي مزهرًا، لأنّني أعرفُ أنّكَ نَصَبْتَ عرشَكَ في صميم محراب قلبي.

وستكون تقدمتي لكَ هي إعلانُكَ من خلالِ أفعالي، لأنّني أعرفُ أنّ قدرتَكَ هي التي تُمِدُّني بطاقةِ العملِ.

*

* *

ملءُ السلامِ

أَبْعدْ عنّي الحبَّ العارمَ الطاغي، فهو يُحاكي الخمرةَ الفوّارةَ التي تُفَجِّرُ وعاءَها الخشبيَّ، وتُسفَحُ، وتُهدَرُ، سريعًا.

وهَبْني حبًّا بسيطًا وطاهرًا، مثل غيثِ مطرِكَ الذي يُؤْتي الأرضَ العَطْشى البَرَكةَ، ويملأُ جرارَ المنزلِ.

هَبْني حبًّا يتسرّبُ إلى مركزِ الكيانِ، ومنه يتفجَّرُ نُسْغًا يسري في أغصان شجرة الحياةِ، ويولّدُ الزهورَ والثّمارَ.

هَبْني الحبَّ الذي يُشيعُ في القلبِ، ملءَ السلامِ.

*

* *

العقَباتُ المُقاوِمَةُ

عنيدةٌ هي قيودي، ويتألّمُ قلبي كلّما جهدتُ في تحطيمها.

الحرِّيّةُ هي مُبْتَغايَ ولكنّني أخجلُ من ترجّيها.

أعرفُ، يا إلهي، أنّكَ تُخفي كنزًا لا يُثمَّنُ، وأنّكَ خيرُ صديقٍ لي، ولكنّني لستُ أجرؤُ على تحريرِ غرفتي من البهارجِ المكدَّسةِ فيها.

الكفنُ الذي يلفُّني قوامُه غبارٌ وموتٌ، وأنا أمقتُه، غير أنّني أقبّلُه بشغفٍ.

ديوني جسيمةٌ، ومواطنُ ضعفي لا تُحصى، وعاري الدفينُ يُرهِقُني، ولكنّني عندما آتيكَ سائلاً خَيْري، أرتعدُ وَجَلاً من أن تُسْتَجابَ صلاتي.

مطرٌ

النهارُ مبلَّلٌ، وقد بَسَطَ المطرُ عليه ظُلمةً،

والبروقُ الغاضبةُ تُطلِقُ نظراتٍ ساخطةً، من خلالِ أقنعةِ السُّحُبِ، والغابةُ تُحاكي أسدًا في قفصٍ، يروحُ ويجيءُ، يائسًا.

وفي هذا اليوم العاصف، دعْني أجد السلامَ في حضورِكَ.

فالجوُّ الكئيبُ قد ملأَ وحدَتي كآبةً، كي أعي كُنهَ مغزى مبادرتِكَ، عندما تأتي كي تمسَّ قلبي.

*

* *

ظلٌّ وضياءٌ

المصباحُ بيدي، يُصارعُ العتمةَ، على الطريق الذي لا يني يتمادى طولاً. وحافّةُ الطريق تُرعبُني، فالأشجارُ المزهرةُ تُلقي عليَّ نظرةَ شبحٍ صارمةً. وصدى خطواتي المكتومة يَرتدُّ إلى سمعي، مضاعِفًا ريبَتي.

ولذلك أُصلّي كي يشرقَ نورُ صباحِك، في هذا الفجرِ حيثُ ينصهرُ القريبُ والبعيدُ، وحيثُ تتوحّدُ الحياةُ في الحبِّ.

*

* *

حبُّك اللامحدود

أقِمْ نصبَ عينيَّ، ودعْ نظرَكَ يُلهبُ نشيدي.

أقِم بين النجومِ، ودعني أستشفَّ، في قلبِ ضيائها، لهيبَ عبادتي.

أقِمْ فوق المْعْطَفِ المُخضلِّ الذي فرشتْهُ الأرضُ تحتَ قدَميْكَ، ودَعني أشهدْ، في حقولِه المزهرةِ، مدى تحيّتي لك.

أُمكثْ إلى جانِبي في مساء التخلّي، عندما يسهرُ قلبي وحيدًا، واملأْ كأسَ وحدتِه، واجعلْني أشعر، في صميم كيانِي، لامحدوديّةَ حبِّكَ.

*

* *

الوقتُ الضائعُ

في أيّام الفراغِ والبطالةِ نَعَيتُ الوقتَ الضائعَ. ولكن، هل هو، حقًّا، ضائعٌ، بعد أن أخذتَ، يا اللّه، كلَّ لحظةٍ من حياتي بين يدَيْكَ؟

أنتَ ثاوٍ في صميمِ كلِّ شيءٍ، تغذّي البذرةَ حتّى تطلَعَ، والبرعمَ حتّى يتفتَّحَ، والزهرةَ حتّى تُنْضِجَ الثمرَ الغزيرَ.

كنتُ مُتعَبًا، مُمدَّدًا على فراش الكسَلِ، متوهّمًا أنّ كلّ عمَلٍ قد توقّفَ، ولدى استيقاظي، صباحًا، ألفَيْتُ حديقَتي زاخرةً بالأزاهيرِ والروائعِ.

لا أريدُ سواكَ

إنّكَ أنت من أبتغي، أنتَ وحدَكَ، يا اللّه! فدَعْ قلبي يردِّد هذه الإرادةَ إلى الأبد.

كلُّ الرغباتِ الأُخرى التي تراودُني، ليلَ نهارَ، هي باطلةٌ. وكما أنّ اللهفةَ إلى النور كامنةٌ في حلك الديجورِ، كذلك، في أغوار لاوعيي، تُدوّي هذه الصيحةُ: «إنّكَ أنت من أبتغي، أنت وحدَكَ».

وكما أنّ العاصفةَ، في عنفوانِ هياجِها، لا تتطلّعُ إلاّ إلى الانتهاءِ في السُّكونِ، لا يكفُّ تمرُّدي يصارعُ حبَّكَ، هاتفًا نحوه: «إنّكَ أنتَ من أبتغي، أنتَ وحدَكَ».

*

* *

إجتثَّ بَرَصَ قلبي

هذه هي صلاتي لكَ، يا اللّه! أُضْرُبْ بَرَصَ قلبي، واجتثَّهُ من جذورِه. هبْني قوَّةَ تقبُّلِ الأفراح والشدائد، بقلبٍ ساجٍ.

هَبْني قدرةَ جعل حبّي يفيضُ خدمةً.

هبْني قدرةَ ألاّ أنكرَ الفقير أبدًا، وألاّ أنحني أمام السلطةِ الوقِحةِ.

هَبْ فكري قدرةَ التعالي فوق التّرهاتِ اليوميّةِ.

هَبْني قدرةَ إخضاع قوّتي لمشيئتِكَ، بحبٍّ.

*

* *

شكرٌ

السائرونَ على دُروبِ الكبرياءِ يسحقون، بنعالهم، كلَّ ما هو دونَهم، ويدمغون الأعشابَ الطريّةَ بآثار أقدامهم الملطّخة بالدماء.

فليبتهجوا، ويشكروكَ، يا اللّه، فهذا اليومُ هو يومُهم.

ولكنّني، أنا، أشكرُكَ، لأنّ نصيبي هو العيشُ بين ظهرانَيِ المحرومين والمتألّمين، الرازحين تحت وِقر المتسلّطين، الذين يوارون وجوهَهم، كي يُخفوا دموعَهم، في الظلِّ.

إنّ كلَّ خلجةٍ من شدّتهم تنبضُ في أعماق سرِّ ليْلِكَ، وفي صميمه؛ وكلّ إهانةٍ تطالُهم قد أُودعت في طوايا صمتِك الجم وسيكون الغدُ لهم.

فيا شمسُ، أشرقي على القلوبِ النازفةِ، عساها تتفتّحُ، في الصباحِ، على ألف إزهارٍ، ولتتحوّلْ مشاعلُ ليالي العربدةِ الصَّلِفةِ، رمادًا!

*

* *

خُذْني، خُذْني!

يومًا إثرَ يومٍ، مَثَلْتُ أمامَ بابِكَ، مادًّا يد السؤال مستجديًا المزيدَ من كَرَمِكَ. فأعطيتَني، وأغدَقْتَ العطاء، تارةً بمقدارٍ، وتارةً بغزارةٍ مدهشةٍ.

تلقّفتُ بعضَ هداياكَ، ولكنّني أعرضتُ عن بعضها الآخر. قدّرْتُ بعضَها حقَّ قدرِها، ولكنّني عبِثْتُ ببعضها الآخر عَبَثي بدُمًى، وحطَّمتُها عندما ملَلْتُها، إلى أن تنامتْ أكوامُ حطامِ عطاياكَ وحجَبَتْكَ عنّي، فيما استمرّ قلبي يذوبُ انتظارًا.

وها أنذا، اليومَ، أهتفُ: «خُذْ، خُذْ، استَعِدْ، حطِّمْ كشكولَ تسوُّلي، وأطفئ مصباح الساهر القلق.

أمسك بيدي، انهضْ بي فوق هذه التلّةِ من عطاياكَ، واقتدْني إلى المدى المُقفِرِ حيث لا أشهد سوى حضورِك».

*

* *

تعالَ إليَّ...

عندما يقسو منّي القلبُ ويجفُّ، هلمَّ وأَمطِرْ عليّ وابلَ رأفتِكَ.

وعندما تفقدُ الحياةُ رواءَها، تعالَ إليَّ في طوفانِ نغَمٍ.

عندما يصُمُّني الضجيجُ، ويصرفُني عن الجوهريِّ، تعالَ إليَّ، يا إلهَ الصمتِ والسلامِ، تعالَ إليّ بسلامِكَ وسكينتِكَ.

عندما يتلبَّدُ قلبي البائسُ، وينتحي زاويةً، ادفع البابَ وادخُلْ، يا إلهي، في أُبَّهة ملكِكَ.

وعندما تُعمي الرغبةُ فكري، وتخدعُه بسرابها وغبارِها، تعالَ إليَّ، أيّها القدّيسُ الوحيدُ، أيّها اليقِظُ، وأضئني بنورِك، وهزَّني برعدِكَ.

*

* *

نهايةُ لياليَّ اللامبالية

استيقاظي في حبِّكَ هو الذي سيقرعُ ناقوسَ نعْيِ لياليّ اللامبالية.

فجرُكَ سيُلهبُ قلبي بأشعّتِه، فتنطلقُ رحلتي على دَرْبِ الألمِ المنتصِرِ.

فأَجرؤُ على مواجهة تحدّي الموتِ، وحملِ صوتِكَ، وسطَ حملات التهكّم والتهديد. وسأُعرّي صدري، كي أَدرأَ الأذى عن أبنائِك، وسأُخاطر بالمكوث إلى جانبِكَ، حيثُ لا يقفُ سواكَ.

*

* *

ولّت ساعةُ اللهو

عندَما كنّا نعبثُ معًا، لم أسعَ، قطُّ، إلى معرفة هويّتِكَ.

كانت حياتي صاخبةً، بمنأًى عن كلّ حياءٍ، وكلّ خوفٍ.

في الصباحِ الباكرِ، كنتَ، مثلَ رفيقٍ، تنتزعُني من رقادي، وتستصحبُني كي ألهوَ، من غابةٍ إلى غابةٍ.

وفي تلكَ الأيّامِ، لم يخطُرْ لي ببالٍ أن أفقَهَ مغزى الألحان التي كنتَ تُنْشدُها على مسامعي، مكتفيًا بالإصغاءِ إلى لحنِها، وإلى ترديدِها، وعلى إيقاعها، كان يرقصُ قلبي.

وها قد ولّى زمنُ اللهو، وحطّت عليَّ، بغتةً، نظرةٌ لم أعهدْها من قبلُ. فالعالمُ الساجدُ عندَ قدَمَيْكَ، مطرقًا، مُغمضَ العينيْن، يتولاّه الخوفُ، وتقاسمُه الرعدةَ جميعُ النجوم الخرساء.

*

* *

عندما تخلِّصُني

عندما تُخلِّصُني، تُصبحُ قدمايَ رشيقَتَيْن في ذرعهما عوالمَكَ، ويُشعُّ قلبي بأَنوارِ شمسِكَ، عندما يغتسِلُ من أدرانِه.

وما لمْ يتفتّقْ بُرْعمُ حياتي عن إزهارِ جمالٍ، يُلطِّخُ الحزنُ قلبَ الخليقةِ.

وعندَما تَخلعُ نفسي كَفَنَ الليلِ، ستُفرِغُ موسيقى على بسمتِكَ.

إنشادٌ

عندما تدعوني إلى الإنشادِ يفيضُ قلبي زَهْوًا، فأرنو إليكَ، وتغرورقُ بالدموعِ عيناىَ.

وتذوبُ كلُّ نشازاتِ حياتي، وكلُّ مراراتها، في تناغُمٍ عذبٍ، وتندفعُ حميّتي لخدمتِكَ، باسطةً جناحَيْها، مُحلِّقةً مثلَ طائرٍ يُسعده الارتحالُ فوق المحيط.

أعرف أنّكَ تستعذبُ نشيدي، وأنّ المُنشِدَ فيَّ – المنشدَ وحدَه – هو الجديرُ بالمثول أمامَ حضورِكَ.

وبأطراف جناحَيْ نشيدي الجسيمَيْن، أُلامِسُ قدمَيْكَ، اللتَيْنِ لن أُعلِّلَ نفسي، أبدًا، ببلوغِهما.

وتأخذُ بي نشوةُ الإنشادِ، فأدعوكَ صديقي، في حينِ أنّكَ سيّدي.

*

* *

عطايا

أعطَيتَني حبَّكَ، وملأتَ العالمَ بعطاياكَ،

مواهبُكَ تنهمرُ عليَّ، حين لا أتوقَّعُها، لأنّ قلبي غافٍ في سوادِ الليلِ.

كنتُ هائمًا في سردابِ أحلامي، فارتعشتُ فرحًا،

موقنًا أنّني سأقابلُ كنزَ كلماتِكَ بزهرةِ حبٍّ صغيرةٍ،

في الصباح، عندما سيستيقظُ قلبي.

لا شيءَ سوى حبِّكَ

أجلْ، أعلمُ أنّ كلَّ هذا لا يساوي شيئًا.

فحبُّكَ وحدَه، يا اللّه، يا من يهواه قلبي، حبُّك وحدَه، هو الذي يثوي في هذا النورِ الذهبيِّ المتراقصِ على أوراقِ الأشجارِ، وفي هذه السُّحُبِ الكسْلى، المُبْحِرَةِ في الفضاءِ،

وفي هذا النسيمِ الرقيقِ، الذي يودعُ لمسةَ نداوةٍ على جبيني.

ضياءُ الصبحِ غمَرَ عيْنَيَّ: تلك هي رسالتُك إلى قلبي، ومحيّاكَ ينحني عليَّ، وعيناكَ تغوصانِ في عينيَّ، وقلبي يسجدُ، ويُلامِسُ قدَمَيْكَ.

*

* *

بلا حدودٍ

بلا حدودٍ صَنَعْتَني، يا اللّه، هكذا طابَ لكَ.

هذه الكأسُ الهشّةُ، لا تني تُفرِغُها، مرّةً تلوَ مرّةٍ، وبلا انقطاعٍ تُعيدُ مَلأَها حياةً جديدةً نديّةً.

وهذا الناي القصبيُّ الصغيرُ، طويتَ به الهضابَ والوديانَ، وبه نفختَ أنغامًا أبديّةَ الجدّةِ. ألمسُ يدَيْكَ فأُلامسُ الخلودَ، ويطفُرُ قلبي من حدودِه، جَذِلاً، وينبضُ بَوْحًا يستعصي على التعبيرِ

في يديّ المُغرِقَتَيْن في الصِّغر، تصُبُّ آلاءَكَ، وتكرُّ السنونُ، وأنت ما زلتَ تُغدِقُ عطاياكَ، ولا تنفكُّ تجد مكانًا لمزيدٍ من الإغداقِ.

الفضاءُ والعشُّ

أنت الفضاءُ، وأنتَ العشُّ، أيضًا.

أيُّها الجمالُ الوحيدُ، بعشِّ الألوانِ، والألحانِ، والعُطورِ، يُسيِّجُ حبُّكَ النفسَ.

ها إنّ الصباحَ قادمٌ من الشرق، حاملاً، في يُمناهُ سلَّةً ذهبيّةً، تضمُّ قلادةَ الجمالِ التي سيُزيِّن بها الأرضَ، بصمتٍ.

ثمّ، ها هو المساءُ آتٍ، عبرَ دروبٍ بكرٍ، منزّهةٍ من كلّ لوثةٍ، وينبسطُ فوقَ برارٍ هجرَتْها القطعانُ، وفي يدهِ جرّةٌ ذهبيّةٌ ملأى بعصيرِ سلامٍ عذبٍ، استقاه من نبعِ بحْرِ السكون الغربيِّ.

وهناك، حيث تمتدُّ السماءُ إلى ما لا نهاية، وحيثُ النفسُ مدعوّةٌ إلى الطيران، هناك يسودُ ضياءٌ فسيحٌ، صافٍ، ناصعُ البياض.

لا نهارَ، هناك، ولا ليلَ، ولا أشكالَ ولا ألوانَ، ولا شيءَ، هناك، سوى صمتٍ جمٍّ، جمٍّ.

*

* *

أصدقاءُ لم أكنْ أعرفُهم

جَعَلْتَني، يا اللّه، ألتقي أصدقاءَ لم يكن لي بهم عهدٌ، ومنحتَني مجلسًا في بيوتٍ لم تكن لي. قرّبتَ لي القصيَّ، وجعلتَ من غريبٍ أخًا لي.

قلبي يَجِفُ وجَلاً، عندما يتعيَّنُ عليَّ هجرُ مسكني المألوفِ، لأنّني أنسى أنّ الماضي، هناكَ، يسكنُ في المستقبلِ، وأنّكَ، أنتَ، أيضًا، هناك تُقيمُ.

بالولادةِ وبالموتِ، في هذا العالمِ، وفي العوالمِ الأخرى، وحيثُما تقتادُني، أنتَ رفيقُ حياتي الأبديّةِ الوحيدُ، وأنتَ من يؤالفُ قلبي، بوشائج الفرح، مع ما ليس لي مألوفًا.

من يتعرّفُكَ، لا يعُدُّ أحدًا غريبًا أو خصمًا، وتُشْرَع له الأبوابُ كلُّها.

فاستجِبْ لصلاتي، وهَبْني هذه النعمة: ألاّ أفقدَ حالَ السعادةِ التي أنعُمُ بها، عندما ألمسُ الأوحدَ، في لجّةِ التعدُّدِ.

*

* *

حيثُ تكتملُ الوحدةُ

هكذا بلَغَ الفرحُ الذي تستمدّه منّي امتلاءَه، وهكذا أنت تنحدرُ إليّ،

يا ربُّ، يا سيّدَ جميعِ السماوات.

فلو لم أكُنْ موجودًا أين عساه أن يكونَ حبُّكَ؟

لقد أشركتني في غناكَ، وفي قلبي اندرجت متعتُكَ، بلا حدودٍ.

وبحياتي تصاغُ، باستمرارٍ، مشيئتُك.

بالجمال ازدنتَ، يا ملكَ الملوكِ، كي تأسُرَ قلبي.

ولذلك يتحوَّلُ حبُّكَ إلى حبيبِكَ.

وتتراءى أنت، هنا حيث تكتملُ وحدةُ اثنينِ.

*

* *

إنّكَ تتوارى

إنّكَ تتوارى في مجدِكَ يا إلهي.

فذرّةُ الرملِ، وقطرةُ الندى ظاهرتان للعيان أكثر منكَ.

والعالمُ يزعمُ، بكلِّ قِحَةٍ، وبلا حياءٍ، أنّ كلَّ شيءٍ هو ملكُه،

في حينِ أنّ كلَّ شيءٍ هو لكَ.

إنّكَ تُفسحُ لنا مكانًا، وأنتَ صامتٌ، باقٍ إلى جانبِنا.

ولذلكَ يُشعلُ الحبُّ مصباحَه، وينطلقُ باحثًا عنكَ،

ويأتي كي يعبُدَكَ، وإن لم يتلقَّ، إلى عبادتِكَ، دعوةً.

عبادةٌ

العطايا التي تُسبغُها علينا، نحن البشر، تُلبّي احتياجاتِنا كلَّها، وترتدُّ إليكَ، كاملةً غيرَ منقوصةٍ.

فالساقيةُ تدأبُ على عَمَلِها اليوميِّ، فتسْعى بين الحقولِ والدساكرِ، راسمةً دربَها. ولكنَّ دفقَها الدائمَ يتحوَّلُ كي يغسلَ قدَمَيْكَ.

والوردةُ تعطِّرُ الجوَّ بشذاها، ولكنّ مُهمَّتَها القصوى هي أن تقدِّمَ ذاتها ليدِكَ.

عبادتُك لا توهنُ الكونَ، ولا تُنقِصُ منه شيئًا.

كلٌّ يفسِّرُ أقوالَ الشاعرِ، وفقَ هواه، ولكنّ معناها الأقصى هو أن تشيرَ إليكَ.

*

* *

وحدةٌ كاملةٌ

فرحُكَ يكتملُ فيَّ، يا الله.

اتّخذْتَني شريكًا في كلِّ ثروتِكَ، وغدا قلبي ملعبًا لما يرضيكَ، ولن تكفَّ حياتي عن عكْسِ صورة رَغباتِكَ.

أنت، يا سيّد الأشياء كلِّها، ازدَنْتَ بالجمالِ، وانصهر حبُّكَ في حبِّ المحبوبِ، كي يؤلِّف وحدةً كاملةً.

*

* *

موسيقاكَ

يتعذَّرُ عليَّ إدراكُ أُسلوبِ إنشادِكَ، ولكنّني أُصغي إليهِ، دائمًا، في ذهولٍ صامتٍ.

نورُ موسيقاكَ يُضيءُ العالَمَ، ونَفَسُها المحيي يرتحِلُ من سماءٍ إلى سماءٍ.

وعمرُها الإلهيُّ يتجلَّى من خلال السدودِ، ويتدفَّقُ،

فيتحرَّقُ قلبي توقًا للانضمامِ إلى نشيدِكَ، ولكنَّه عَبَثًا يسعى وراءَ صوتِكَ.

أتفوَّهُ بكلماتٍ... ولكنّ كلامي لا يؤلِّفُ أيَّ نشيدٍ، فأشكو خيبَتي.

آه! لقد أَسرتَ قلبي، يا سيِّدي، في بُحَيْراتِ موسيقاكَ اللامتناهيةِ

*

* *

لَكَ

لك هذا النورُ الذي يُمزِّقُ الظلمةَ، ولَكَ العطفُ المتفجِّرُ من قلبٍ تمرَّس بالنضالِ.

لَكَ هذا البيتُ المُشرعُ على العالَمِ، ولَكَ هذا الحبُّ الذي يدعو إلى الكفاحِ، لَكَ هذه الهِبةُ، وهذا الربحُ المُكتَسَبُ، عندما يُخْسَرُ كلُّ شيءٍ، ولَكَ هذه الحياةُ التي تصبُّ نهرَها في كهوفِ القبرِ.

لَكَ السماءُ المنثورةُ في الترابِ وفي الظلِّ.

وأنتَ هنا، لي أنا، ولكلِّ أبناءِ العالَمِ.

*

* *

أُقطُفْ هذه الزهرةَ

أُقطُفْ هذه الزهرةَ النحيلةَ، بادرْ إلى تناوُلِها، خشيةَ أن تذبُلَ، وتتساقطَ أوراقُها في الرغامِ، وحتّى إن لم يكنْ لها في عِقْدِكَ مكانٌ، لا تَضُنَّ عليها بلَمسةِ يدكَ الموجعةِ. أُقطفْها، فقد بتُّ أخشى أن ينصرمَ النهارُ، في غفلةٍ منّي، وأن يفوتَ وقتُ التقدمةِ.

ولو أنّ لونَها باهتٌ، وخجولٌ هو أريجُها، اِستخدمْ هذه الزهرةَ، واقْطُفْها قبل فواتِ الأوانِ.

*

* *

تجرَّدَ إنشادي من بهارِجِهِ

لقد تجرَّدَ إنشادي من بهارِجِه، ولن أُفرغَ فيه، بعدُ، أيّةَ كبرياء. فالحليُّ تُفسِدُ تلاقينا، وتنتصبُ، في ما بيْننا، حاجزًا، ويطغى على همساتِكَ حفيفُها.

عندما أشاهدُكَ، أيّها الشاعرُ المعلِّمُ، يموت زهوُّ الشاعر، فيَّ، حياءً. ها أنذا عندَ أقدامكَ قابعٌ، فلتكنْ حياتي شيئًا بسيطًا ومستقيمًا، مثلَ مزْمارٍ قصبيٍّ تستطيع، أنتَ، مَلأَه نغمًا.

*

* *

بساطةٌ

الوقتُ الذي يستغرقُه سعيي طويلٌ، وطويلةٌ الطريقُ.

امتطيتُ عربةَ أوّل شعاعِ نورٍ، وواصلتُ رحلتي عبرَ قفارِ العوالمِ، وخلَّفتُ أثرًا على كلِّ نجمةٍ.

إنّ أكبر المسافات طولاً هي التي تُدنيني منكَ، يا اللّه، وأكثرُ الأنغامِ تعرُّجًا هي التي تقودُ إلى بساطة التناغُمِ الكاملةِ.

*

* *

أخيرًا، هتَفتُ إليكَ

على المسافِرِ أن يقرَعَ جميعَ الأبوابِ قبل الانتهاءِ إلى بابه.

ولا بدَّ له من التيهِ عبرَ جميعِ العوالِمِ الخارجيّةِ، قبلَ البلوغِ، أخيرًا، إلى هيكلِهِ الحميم.

ولطالما تركتُ أبصاري تهيمُ في البعيدِ، قبلَ أن أُغمضَ عينيَّ، وأهتف: «ها أنتَ ذا!».

*

* *

حبًّا بي، تُعرِضُ عنّي

كثيرةٌ هي رغباتي، ومثيرةٌ للشفقةِ شكواي. ولكنّكَ، بإعراضِكَ القاسي لا تنفكُّ تقيني، ولا تنفكُّ رأفتُكَ تنسجُ شبكتَها حول حياتي.

يومًا إثرَ يومٍ، تصوغُني، كي أكون جديرًا بكبريات آلائِكَ البسيطةِ التي تُسبِغُها عليَّ: هذه السماءُ وأنوارُها، هذا الجسدُ، والحياةُ، والروحُ. وفي الآنِ عينِه، تقيني من أخطارِ الرغباتِ الجامحةِ.

أضعفُ، أحيانًا، وأُلِحُّ. وقد أهبُّ وأندفعُ بحثًا عن غايتي. ولكنّكَ، حينئذٍ، تواجهُني بإعراضٍ قاسٍ.

يومًا إثرَ يومٍ تُعدُّني كي أكونَ جديرًا بكرمِ ضيافتِكَ، ولكنَّكَ، بإعراضِكَ المتكرِّرِ والمستمرِّ، تقيني من مخاطرِ الرغباتِ الهزيلةِ والمريبةِ.

*

* *

مُنشدٌ

أنا هنا كي أُنشِدَ. وفي هذه القاعةِ التي تخصُّكَ لديَّ زاويةٌ أجلس فيها.

لا عمقَ لي في عالَمِكَ سوى سكْبِ ألحانٍ متقطِّعةٍ.

عندما ستدقُّ الساعةُ من أجل عبادتِكَ الصامتة، في معبدِ منتصفِ الليلِ الغارق في الظلامِ، مُرْني، يا سيّدي، فأمثلَ أمامَكَ منشدًا.

وعندما تُضْبَطُ القيثارةُ الذهبيّةُ، مع نسيم الصباح حينئذٍ مُرْني بالحضورِ.

هل حانَ الأوانُ؟

دُعيتُ إلى مهرجان هذا العالَم، وبذلك بوركتْ حياتي. فرأتْ عيناي، وسمعتْ أُذُناي.

كان دَوْري، في هذا العيد، أن أعزف بآلتي، وقمتُ بكلِّ ما استطعتُ إليه سبيلاً.

والآنَ أسألكَ هل حانَ، أخيرًا، أوانُ الدخول كي أشهدَ وجهَكَ، وأُقدِّمَ لك تحيَّتي الصامتة؟

*

* *

في المساء

عندما ينقضي النهارُ، وتصمتُ الطيورُ، وتتعبُ الريحُ، وتركدُ، ابسطْ فوقي سجوفَ الظلمات، مثلما تلفُّ الأرضَ بغطاءِ النومِ؛ وأغلقْ بالغمام بتلاتِ نبتة اللوتُس المتداعية، إغلاقًا رقيقًا.

وأزِحِ العارَ والبؤسَ عن المسافرِ الذي لم يُكملْ، بعدُ، مسيرتَه، وما زال جرابُه فارغًا، والذي تمزَّق ثوبُه، وكساه الغبارُ، وخارتْ قواه. وجدِّد حياتَه، كما تجدِّدُ حياة الزهرة، تحتَ ستارِ الليلِ العطوفِ.

*

* *

«أناي» البائسُ

جئتُ، وحيدًا، إلى موعدي معكَ، يا اللّه. ولكن من ذا الذي يواكبني في العتمةِ الصامتةِ.

أنأى متحاشيًا عن حضوره، ولكنّني لا أنجو من ملاحقتِه.

إنّه يثير الغبارَ مزهوًّا، معْتدًّا، ويضخّم كلَّ كلمةٍ أتفوّه بها، بدويِّ صوتِه.

إنّه «أناي» البائسُ، يا ربُّ، وهو لا عهدَ له بخَجَلٍ، ولكنّني أنا خجلٌ من طرق بابِكَ، وهو برفقتي.

*

* *

ما زال حُبُّكَ ينتظر حُبّي

بجميعِ الوسائل يجهدُ في حمايتي من يحبّوني في هذا العالم. ولكنّ حبَّكَ الذي يفوقُ حُبَّهم، ينهجُ نهجًا مغايرًا، ويدَعُني طليقًا.

خشيتُهم من أن أنساهم تحولُ دون أن يَدَعوني وحيدًا. ولكنّ الأيّامَ تتوالى، وأنتَ لا تتراءى لي.

ومع أنّي لا أُسمّيكَ في صلواتي، ومع أنّي لا أحتفظ بكَ في قلبي، ما زال حُبُّكَ ينتظرُ حبّي.

*

* *

فليستيْقظْ وطني

حيثُ الروحُ لا يخافُ، حيثُ الهامةُ شامخةٌ،

حيُث المعرفةُ حرَّةٌ،

حيثُ لم يُجزّأْ العالمُ، ولم تقمْ فيه فواصلُ لزيزةٌ،

حيثُ تنبثقُ الكلماتُ من أعماق الصراحةِ،

حيثُ الجهدُ الذي لا يكلُّ يسعى دائمًا إلى الكمالِ،

حيثُ لم تقضِ صحراءُ العادةِ القاحلةُ والباهتةُ على تيّار العقلِ اليقظِ،

حيثُ تَقودُ، أنت يا الله، الروحَ صوب إنماءٍ مطَّردٍ للفكرِ والعملِ، على فردَوْسِ الحرّيّةِ هذا، يا أبتاهِ، اجعلْ وطني يستيقظ!

*

* *

حياتي ثمينةٌ بين يدَيْكَ

إنّي أبكي رداءَتي، عندما أرقبُ تواصُلَ حياتي مع تفاهة الساعاتِ. ولكنّني عندما أَشهدُها بين يَديْكَ، أُدرِكُ أنّها أثمنُ من أن تُبَعْثَرَ بين الظلالِ.

*

* *

أمْطِرْ...

منذ أيّامٍ وأيّامٍ، لم تَهْمِ قطرةُ مَطَرٍ، يا إلهي، على قلبي المُقْفِر. الأُفقُ عارٍ عُريًا شرسًا، لا تلوحُ فيه سحابةٌ، وليس ما يوحي بمَطَرٍ منعشٍ قريبٍ.

فأرسلْ عاصفتَكَ الغاضبةَ، القاتمةَ، المُثقَلةَ بالموتِ، إن كانت تلك هي رغبتُكَ، وبضرباتِ بروقِكَ شقّ السماءَ من جانبٍ إلى جانبٍ.

ولكن استعِدْ إليكَ، يا ربُّ، هذا القيظَ المريعَ، الثاقبَ، القاسي، الذي يقتحمُ قلبي خلسةً، ويجفّفُ فيه كلّ أملٍ.

ومن أعلى سمائِكَ، أنزلْ علينا غَيْثَ رحمتِكَ، الذي يحاكي نظرةَ أُمٍّ مفعَمةً دموعًا، في يوم غَضَب الوالدِ.

*

* *

دمغةُ الأبديّةِ

ذاتَ يومٍ، لم أكُنْ فيه مستعدًّا لاستقبالِكَ، ولجتَ إلى قلبي، بلا استئذانٍ، ولكأنّكَ من عامّةِ الشعبِ، وكأنّي لا أعرفُكَ، ودمغتَ بطابعِ الأبديّةِ لحظاتٍ عديدةً خاطفةً من حياتي.

وها إنّي أعثُرُ عليها، اليومَ، صدفةً، وأشهدُ عليها توقيعَكَ. أجدُها ملقاةً في الترابِ، بين أفراح أيّامي العاديّةِ المنسيّةِ وأحزانِها.

أنتَ لم تسخَرْ من أوقات عبثي الصبيانيِّ في الترابِ. والخطواتُ التي كنتُ أسمع وقعَها في حجرةِ طفولتي هي ذاتُها التي يتردّدُ صداها من نجمةٍ إلى نجمةٍ.

أمامَ بابِ كوخي

من سماءِ عرشِكَ انحدَرْتَ، ووافَيْتَ نحوَ بابِ كوخي.

كنتُ منتَحيًا زاويةً، وحيدًا، أُنشِدُ، وفاجأت النغمةُ أُذُنَكَ، فانحدرتَ، ويمّمتَ شطرَ باب كوخي.

كثُرٌ هم الموسيقيّون البارعون في قصرِكَ، حيثُ الأناشيدُ تصْدَحُ في كلِّ حينٍ. بيد أنّ بساطةَ نشيدِ هذا المبتدئ فَتَنَتْ حبَّكَ. نغمةُ آهةٍ هزيلةٌ امتزجت بموسيقى العالم الكبرى، فانحدرتَ ووافيتَ صوبَ باب كوخي كي تكافئَها بزهرةٍ.

*

* *

غدَوْتُ أُدرِكُ

كانت حفنةُ رملٍ كفيلةً بحجبِ إشارتِكَ عنّي، عندما كنتُ عاجزًا عن تفَقُّهِ معناها.

والآنَ، وقد ازدَدْتُ إدراكًا، أتبيّنُ إشارتَكَ في كلِّ ما كان خافيًا عنّي. فهي التي تلوِّن بَتَلاتِ الزهورِ، والأمواجُ تزيِّنُها بزبَدِها، والقِمَمُ تتألّقُ بها. كنتُ قد صرفتُ وجهي عنكَ، ولذلك كنتُ أتهجّأُ حروفَكَ، ولا أُدرِكُ معناها.

*

* *

إصرارٌ...

أينَ أنتَ تقفُ، يا حبيبي، وراءَ جميعِهم، متواريًا في الظلِّ. المارّةُ يزحمونَكَ على الطريق المغبرِّ، غير مبالينَ بك. وأنا، هنا، أُنفقُ ساعاتٍ عصيبةً، باسطةً لك تقادمي، والمارّةُ يسلبون زهوري، واحدةً واحدةً، حتّى كادَت سلّتي تفرغُ.

انقضتْ فترةُ الصباح، وانقضت الظهيرةُ، وأثقَلَ النعاسُ عينيَّ في المساءِ، والعائدون إلى بيوتهم ينظرون إليَّ شزرًا، وتملأني بَسمتُهم الساخرةُ مهانةً. وأنا قابعةٌ مثل فتاةٍ فقيرةٍ، ساترةً وجهي بطرف ثوبي، وعندما يستوضحوني عمّا أريد، أُطرقُ، ولا أُجيبُ.

آه! كيف لي أن أقول لهم، حقًّا، إنّكَ أنتَ من أنتظرُ، لأنّك وعدتَني بالحضورِ؟ وكيف أتغلّبُ على خجلي، وأُقرُّ بأنّني ارتضيتُ هذا الفقر مهرًا؟ آه! إنّي أحضن كبريائي في سرّ قلبي.

إنّي قابعةٌ على العشب، وعيناي سارحتان في السماء، حالمةً بمباغتة بهاء حضور أجنحةِ عربتِكَ الذهبيّة الخفّاقة، وسط اللهب المتطاير، فيما هم جالسون على حافّة الطريق مذهولين برؤيتِكَ منحدرًا من مجلِسِكَ، كي تنتزعَني من التراب، وتُجلِسَ إلى جانبِك هذه الفتاة الفقيرةَ، بأسمالِها الرثّةِ، المرتعدة خجلاً وكبرياءَ، مثل نبتةٍ متسلّقةٍ يعبث بها نسيم الصيف.

غير أنّ الوقت يكرّ، ولا أسمع ضجيج عجلات عربتِكَ، فيما تعبرُ مواكبُ عديدةٌ، صاخبةً، مزهوّةً. أليس، ثمّةَ، سواكَ مصرٌّ على المكوث في الظلّ وراء جميعهم؟ وأَليس سواي من يصرُّ على انتظارك، باكيةً، موجِعةً قلبي بأمَلٍ باطلٍ؟

أهدَيتَني سيفًا

تمنَّيتُ أن أسأَلَكَ قلادةَ الورود التي كانت تطوِّقُ عنقَكَ، ولم أجرؤْ. وانتظرتُ ذهابَكَ، في الصباحِ، متأمِّلةً أن أجد على السرير أثرًا لها؛ ونظيرَ متسوِّلٍ بحثتُ، ولو عن بَتَلةِ وردةٍ تائهةٍ.

ويا لَبؤسي! أيَّ عربونٍ عن حبِّكَ تركتَ لي! لم يكنْ زهرةً، ولا قارورةَ عطرٍ، ولا طيوبًا. فقد وجدتُ سيفَكَ البتّارَ، المُلتَمعَ كاللهب، الثقيلَ كدويِّ الرعدِ

وتسلّل نورُ الصباح الوليد، وانبسطَ فوق سريرِكَ، وزقزقَ عصفورُ الصباح، مستوضحًا: «ما الذي وجدتِه، يا امرأة؟».

لا، لم أجدْ زهرةً، ولا قارورةَ عطرٍ، ولا طيوبًا، بل وجدْتُ سيفَكَ الرهيب.

أُعجبتُ وذهلتُ. أيّةُ هبةٍ هذه التي مننتَ بها عليَّ، والتي لا أجدُ لها مخبأً؟ إنّني أخجلُ من حملها، أنا الهزيلة الواهية. وإنّي أجرح نفسي عندما أشدُّها على صدري. ولكن لا بدَّ من أن يحتملَ قلبي شَرَفَ هذه الهديّة التي يرهقني عبؤُها.

بعد الآن، لا شيءَ في هذا العالم يُخيفُني، وستظلُّ أنت المنتصرَ في كلّ معاركي. تركتَ لي الموتَ رفيقًا، وسأُتوِّجُه بحياتي.

إنّ سيفَك بيدي كي أبترَ به كلَّ قيودي. ولن يخيفَني، بعدُ، شيءٌ، في هذا العالم.

بعد الآن، سأعزفُ عن كلِّ بهرجٍ نافلٍ، يا مليكَ قلبي. لن أعهدَ، بعدُ، الانتظارَ، والبكاء خلسةً، ولا المَصانعةَ، ولا الدماثةَ. فقد أهديتَني سيفَكَ زينةً. وما حاجتي، بعدُ، إلى بهارج الدمى؟

حسرتي المُقيمَةُ

إن كان قدَري ألاّ ألقاكَ، في هذه الحياة، فعسى، على الأقلِّ، ألاّ أفقدَ أسفَ حرماني من رؤيتِكَ، وعسى ألاّ أنسى، لحظةً واحدةً، وعسى أن يواكبَني، في نومي وفي يقظَتي، عذابُ هذه الحسرةِ.

فيما تنسابُ أيّامي، وسطَ جموعٍ متكالبةٍ على الكسْبِ، وفيما تمتلئُ يدايَ بمكاسبي اليوميّةِ، فليلازِمْني الشعورُ بأنّني لم أربحْ شيئًا، وعسى ألاّ أَنسى، لحظةً واحدةً، وعسى أن يواكبَني، في نومي وفي يقظَتي، عذابُ هذه الحسرةِ.

عندما أقِفُ عندَ حافّةِ الطريقِ، مُنْهَكًا متهالكًا، وعندما أفترشُ الترابَ، فلْيُرافقْني، دائمًا، الشعورُ بأنّ الرحلةَ ما برحَتْ طويلةً أمامي، وعسى ألاّ أنسى لحظةً واحدةً، وعسى أن يواكبَني، في نومي وفي يقظَتي، عذابُ هذه الحسرةِ.

عندما يزدانُ منزلي بالأعلامِ والبهارجِ، وعندما تصدَحُ في حناياه أنغام الناي، وتتردّدُ رنّاتُ الضحكاتِ، فلأَشعرْ، دائمًا، أنّني أحجَمتُ عن دعوتِكَ إلى منزلي، وعسى ألاّ أنسى، لحظةً واحدةً، وعسى أن يواكبَني، في نومي وفي يقظتي، عذابُ هذه الحسرةِ.

*

* *

رفيقُ الدربِ

السيرُ هو مرافقتُك، في كلِّ لحظةٍ، يا رفيقَ الدربِ.
هو الإنشادُ على إيقاعِ وقْعِ خطاكَ.
من يلمسُه نَفَسُكَ، لا يستسيغُ أمانَ الشاطئ،
بل يبسطُ أشرعتَه، كي تخفُقَ فيها الريحُ، ويُبحرُ على لجّةٍ صاخبةٍ.
من يُشرِع بابَه على مصراعَيْه، ويجتازُ عتبتَه، يتلقّى تحيَّتَكَ،
ولا يتريَّثُ في عدِّ مكاسبِهِ والانتحابِ على خسائرِهِ، بل تنتظمُ مسيرتُه على إيقاع خفقاتِ قلبه،
لأنّكَ تواكبُه، خطوةً خطوةً، يا رفيقَ الدربِ.

*

* *

تجرُّدٌ

وضعتَني، (يا اللّه)، وسط المهزومين، وأنا أعلمُ أنّ النصرَ ليس مكتوبًا لي، ولا قدَري الإفلاتُ من المعركةِ.
سأغوصُ في الهاوية حتّى قعرِها، وسأضطلعُ بمهمّة الهزيمةِ.
سأقامرُ بكلِّ ما أملكُ، وعندما سأخسَرُ كلّ شيءٍ سأقامرُ حتّى بكياني.
ورُبَّما، حينئذٍ، سأستعيدُ كلّ شيءٍ، بفضلِ تجرُّدي الكلّيّ.

*

* *

رجاءٌ

أعلمُ أنّ الشمسَ ستودِّعُني الوداعَ الأخيرَ، في مساء يومٍ مظلمٍ.
سيستمرُّ الرعاةُ يعزفونَ بمزاميرِهم، في ظلال أشجارِ التين،
وستواصلُ القطعانُ الرعيَ على ضفاف الساقيةِ، فيما تنسابُ أيّامي في جوف الليلِ.
وأُصلّي، لعلّني أُدرِكُ لماذا أخذَتْني هذه الأرضُ بين ذراعَيْها، ولماذا حدّثني صمتُ الليل عن النجومِ، ولماذا أنجب نورُ النهارِ، بقبلَتِهِ، زهورَ فكري.
وهلْ لي أن أتريّثُ قبلَ رحيلي، مردِّدًا نشيدًا أخيرًا، مكملاً لحنَهُ، هاتفًا: «فلْيُضَأْ المصباحُ كي أُشاهدَ وجهَكَ، ولتُضفَرْ قلاداتُ الزهورِ، كي أُطوِّقَ بها عنقَكَ!».

*

* *

ارتحالٌ

أنا المركبُ، وأنت اللجَّةُ والربّانُ.
إنّكَ تجتذبُني إلى الأعماقِ. فعلامَ القلَقُ؟
وهل التريُّثُ على الشاطئ خيرٌ من التيهِ فيكَ؟

*

* *

مُدَّ يدَكَ

عندما أرْزَحُ تحتَ وقْرِ الكلَلِ، وظمإِ النهار المقفِرِ، وعندما تبسُطُ أشباحُ ساعاتِ المغيبِ ظلالَها على حياتي.

حينئذٍ، لستُ، فقط، إلى صوتِكَ أتوقُ، يا صديقي، بل إلى يدِكَ تضغط يدي.

إنّ هاجسًا يسكنُ قلبي، فهو يرزحُ تحت عبءِ الثرواتِ التي لم يقدِّمها لكَ.

فمُدَّ يدَكَ، من خلال الليل، ولأُمسكْها، وأَملأْها، وأتشبَّثْ بها، ولأَشعرْ بعناقِكَ، في وحشةِ الطريقِ الذي لا يني يتمادى.

*

* *

كنتَ في قرارةِ نفسي

كنتَ في قرارةِ نفسي، يا اللّٰه،

ولذلكَ، عندما ضلّت نفسي، لم تعثُرْ عليكَ.

لقد أشحتَ عن جميعِ أهوائي وآمالي، ولكنّكَ كنتَ، دائمًا، في ثناياها.

كنتَ، في لهوِ شبابي، فرحَه الكمين، ولكن كلّما أمعنتُ في الاستسلام للّهو، كنتُ أنأى عن الفرح.

لقد أنشدتَ لي، في كلِّ نشواتِ حياتي،

ولكنّني نسيتُ أن أُنشدَ لك.

غيَّرَني الفرحُ

كنتُ، من قبلُ، أقبعُ وحيدًا، منتحيًا زاويةً،

وكنتُ أجدُ منزلي يضيقُ بنزيلٍ واحدٍ،

والآنَ، بعدَ أن أشْرَعَ لي فرحٌ، لم أبحثْ عنه، بابَه على مصراعَيْهِ،

بتُّ أجدُ فيه متَّسعًا لكَ، يا اللّه، وللعالم أجمع.

كنتُ أسيرُ، حذرًا، مغرقًا في العناية بجسدي، فأُعطِّرُهُ، وأُلبسُهُ أفخرَ الحليِّ.

والآنَ، بعد أن رمَتْني عاصفةُ فرحٍ أرضًا، ومرَّغتْني بالترابِ، غدوتُ أضحكُ عاليًا، وأتقلَّبُ مثلَ ولدٍ على الأرضِ، عند قدمَيْكَ، يا اللّه.

*

* *

كلَّفتَني

أعطيتَ العصافير الإنشادَ، فقابلتْ عطاءَكَ بأناشيدِها.

وأعطيتَني الكلامَ، فاطلُبْ منّي أكثر منه، كي أُنشدَ.

خَلَقتَ النسائمَ الرقيقةَ، ووضعتَ لخدمتِها دوّاماتٍ، وأودعتَ في يديَّ أثقالاً كي أُخفِّفَ ثقلَها بجهودي، فأَكتسبَ، بذلكَ، من أجل خدمتِكَ، حرِّيّةً منزّهةً من كلِّ عائقٍ.

خلقتَ هذه الأرضَ، وملأتَ ظلالَها بروقًا مضيئةً، وارْتَحْتَ. وأَوْكلتَ إليَّ إعادةَ خلقِ سمائكَ بيديَّ. أغدقتَ مواهبَك على كلِّ شيءٍ أرضيٍّ، واقتضيْتَ منّي العطاءَ. حصادُ حياتي سينضجُ في الشمس وفي المطر، وستجعَلُني أجني أكثرَ ممّا بذرتَ، مفرِحًا قلبَكَ، يا ربّ المواسمِ الذهبيّةِ.

*

* *

فخورٌ بخدمتِكَ

عندما تنامُ الأرضُ، أشخصُ إلى بابِكَ،

وفيما النجومُ صامتةٌ، لا أجسُرُ على الإنشادِ،

فأصبُرُ، وأسهرُ، حتّى يعبُرَ ظلُّكَ على شرفةِ الليلِ،

وحينئذٍ، أعودُ أدراجي، وقد امتلأ بكَ قلبي.

ثمَّ، في الصباحِ، أُنشدُ عند حافّةِ الطريقِ، فتجيبُني أزهارُ السورِ، ويُصغي نسيمُ الصباح.

ويتوقَّفُ المارَّةُ، بغتةً، ويحدِّقونَ إليَّ، ظانِّينَ أنّني ناديتُهم بأسمائهم.

أبْقِني، يا الله، على مقربةٍ من بابكَ، متبيِّنًا أدنى رغباتِكَ،

ثمَّ أرسلْني، عبرَ ملكوتِكَ، بعدَ أن أتلقّى نداءَكَ.

ولا تسمحْ بأن أتردّى وأتيهَ في هوّة العذوبةِ،

ولا أن يُفقِرَ التقاعُسُ عن العمل حياتي،

ولا أن يُعْميَني غبارُ الملاهي بِرِيَبِهِ،

ولا أن أنهجَ دروبًا عديدةً طمعًا في مزيدٍ من جني المكاسبِ،

ولا أن يعنو قلبي لنير أسيادٍ كُثُرٍ.

بل، فلْيبقَ رأسي عاليًا، ولأبقَ شجاعًا، فخورًا بكوني خادمَكَ.

*

* *

وجهًا إلى وجهٍ

هل سيتسنّى لي أن أمثُلَ أمامَكَ، يومًا إثرَ يومٍ، وجهًا إلى وجهٍ، ضامَّ اليدين خشوعًا، يا سيّدَ حياتي؟

تحتَ سمائِك الرحبةِ، في صمتٍ ووحدةٍ، وبقلبٍ منكسِرٍ، هل سأمثُلُ أمامَك وجهًا إلى وجهٍ؟

في عالِمكَ الدائبِ على العمَلِ، الضاجِّ بالجهدِ والكفاحِ، وفي غمرةِ حراكِ الجموعِ، هل سيتسنّى لي أن أمثُلَ أمامَكَ، وجهًا إلى وجهٍ؟

وعندما سأفرَغُ من عملي في العالمِ، يا ملكَ الملوكِ، هل سأقفُ أمامَكَ، وحيدًا، صامتًا، وجهًا إلى وجهٍ؟

*

* *

سينبَلجُ الصبحُ

عندما تمسِكُ عن الكلامِ، يا اللّه، أُقاسي صمتَكَ، وأُفعِمُ به صدري، وأنتظرُ، ساكنًا، مطأطئَ الرأسِ، كالليلِ تسهرُ نجومُه.

سينبَلجُ الصبحُ، أكيدًا، ويضمحلُّ الظلامُ، وسيسيلُ صوتُكَ، مثلَ ذهبٍ ينساب عبرَ السماءِ.

وستنطلقُ كلماتُكَ، آنذاكَ، أناشيدَ، من أعشاشِ طيوري، وستتفجّرُ أنغامُكَ زهورًا، في جميع خمائل غاباتي.

*

* *

ولكن...

أجلْ، أعترفُ بكَ، إلهًا، وأنتحي جانبًا، ولكنّني لم أجعلْ منْكَ خاصَّتي، ولم أُحِطْ بكَ معرفةً وثيقةً.

أعترفُ بكَ أبًا، وعندَ قدَمَيْكَ أسجدُ، ولكنّني لا أُمسِكُ بيدِكَ، إمساكي بيدِ صديقٍ.

حيثُ تحطُّ على أرضنا، يا اللّه، وتَهَبُني ذاتَكَ، لا أُقيمُ أنا، ولستُ، بعدُ، مستعدًّا لضمِّكَ إلى قلبي، ولاتّخاذِكَ رفيقًا.

أنتَ أخٌ بينَ إخوتي، ولكنّني لا أُعيرُ هؤلاء الإخوةَ اهتمامًا، ولا أُقاسِمُهم أرباحي، فأُشركُكَ بكلِّ ما أملكُ.

لستُ أقِفُ إلى جانبِ البشرِ، في سعادتِهم وبؤسِهم، ومن ثمَّ لا تتسنّى لي الإقامةُ إلى جانبِكَ.

إنّي أتردّدُ في التخلّي عن حياتي، كي أنغمسَ في لجَّةِ الحياةِ الغامِرةِ.

*

* *

أعطِني، يا اللّه

أعطِني، يا اللّه، زادَ الحبِّ الأسمى، هذه هي صلاتي. أعطِني الزادَ الذي يتيحُ لي أن أتكلّمَ، وأعملَ، وأتألّمَ، وفقًا لمشيئتِكَ، وأن أتخلّى عن كلِّ شيءٍ، كيلا تتخلّى مشيئتُكَ عنّي. قوِّني في المخاطر، وكرِّمني بالألم، وساعدْني على تسلُّق دروبِ التضحيةِ اليوميّةِ الوعرةِ.

أعطِني ثقة الحبِّ القصوى، هذه هي صلاتي، أعطِني الثقةَ في الحياة التي تتحدّى الموتَ، وتحوِّلُ الضعفَ قدرةً، والهزيمةَ نصرًا.

وارتقِ بي، لكي تتقبّلَ كرامتي الإهانةَ، وتأبى إلحاقَها بأيٍّ كان.

*

* *

صورةُ مليكي

عندما زعمتُ نحتَ صورةٍ لك، على غرار حياتي، كي يعبدَها البشرُ، جئتُ برغباتي ورمادها، وبكلّ إغراءات أوهامي، وبأحلامي.

وعندما رجوتُكَ أن تصوغ، بحياتي، صورةً نابعةً من نفسِكَ، جديرةً بأن تحظى بحبّكَ، جئتَ بنارِكَ، وقوّتِكَ، وحقيقتكَ، وحبّكَ، وسلامكَ.

*

* *

من نفسي أطلقْ نشيدَكَ؟

استحوذَ عليَّ التعبُ، بعد أن أنفقتُ نهاري كلَّه سائرًا على قدميَّ. وحينئذٍ، التفتُّ نحو بلاطِكَ الملكيّ الذي ما زال بعيدًا.

كان الليلُ يهبطُ، والتوقُ يستولي عليَّ. وأيّةً كانت كلماتُ نشيدي، كان الألمُ يخترقُها. فأناشيدي، هي أيضًا، كانت ظمأى، يا حبيبي، يا مُفَضّلي.

وعندما غاصت الساعةُ في الظلمةِ، رمَت يدُكَ الصولجانَ، وتناولت القيثارةَ، وغمَزَتْ أوتارَها، فاختلجَ قلبي، يا حبيبي، يا مُفَضَّلي.

ولكن ما هي السواعدُ التي تكتِّفني؟

سأتخلّى عمّا يتوجَّبُ عليَّ التخلّي عنه، وسأحمِلُ ما يتعيّنُ عليّ حمله، وحسبي أن يتاح لي السير بقربِكَ، يا حبيبي ومُفَضَّلي.

إنحدرْ، أحيانًا، من عرشِكَ، وتعالَ فاختلطْ بمسرّاتِنا وبآلامِنا.

تخَفَّ مموَّهًا بكلِّ الأشكال، وتوارَ في جميع مُتعِنا، وفي الحبِّ، وفي نفسي، ومنها أطلق نشيدَكَ.

*

*   *

معجزةُ حبِّكَ

لقد جعَلَني حبُّكَ عظيمًا، وأنا لستُ سوى إنسانٍ بين سوادِ البشر، غارقٍ في لجّةِ الرداءةِ، تتقاذَفُني أمزجةُ العالمِ المتقلِّبةُ.

لقد أفسحتَ لي مكانًا حيث يودعُ الشعراءُ تقادِمَهُم، وحيث العشّاق المشهورون يتبادَلون التحيّاتِ عبرَ الأجيالِ.

يصدفُني اللامبالون في السوقِ، وهم يجهلون أنّ جسدي قد أمسى ثمينًا بفضْلِ لمستِكَ الرقيقةِ، ولا يعلمون أنّني أحمل قبلتَكَ، مثلما تحمل الشمسُ الدمغةَ الإلهيّةَ التي ألهَبَتْها بنارٍ لا تنطفئُ.

*

* *

ثمينةٌ حياتي بين يَديْكَ

في إبهارِ برقِ لحظةٍ، شاهدتُ عظمةَ خلقكَ، عندما منحتَني الحياة... إنّي أبكي دناءتي عندما أَلحظ اندراج حياتي في تفاهة الساعات، ولكن عندما أَلمحها بين يديْكَ، أُدركُ كم هي أَثمنُ من أَن تُهدَر بين الظلالِ.

*

* *

عطاءُ اللّه

يا اللّه،
أعطَيْتَ العصفورَ التغريدَ، وهو يشدو شَدْوَه، ولا يقوى على أكثر منه.
وأعطَيْتَني الصوتَ، وأنا أُعطي أكثر من الصوتِ: أخلُقُ أناشيدي.
وهَبتَ الريحَ الحرّيّةَ، لكي يكونَ خادمُكَ هذا، بطبيعتِه، محرَّرًا من كلِّ قيدٍ، وأنا كلَّفتَني بحمل ألفِ لونٍ من الأعباءِ، أسيرُ بها بعناءٍ، على دروبٍ مُعْوَجَّةٍ أو مستقيمةٍ...
وذات يومٍ سأطهُرُ عندَ قدَمَيْكَ، وقد تحرّر ذراعيَّ كي تخدماكَ وحدَكَ. وهكذا كلّ القيودِ هي لي وسيلةُ تحرُّرٍ.
لم تُعْطِ وَجْهَ البدرِ سوى بسْمةٍ،
وهو يسكبُ أحلامًا عذبةً، ويغمر الأرض بكوثرِه السماويِّ.
وكسَوْتَ جبيني المُلْتَهب بالألم،
فأغسلُهُ وأطهّرُه بدموعي، وأُحوّلُ الكمَدَ فرحًا، وآتيكَ به تقدمةً، قبلَ نهايةِ النهار.
لقد اقتصرتَ على خَلْقِ هذا العالمِ الأرضيِّ بالنورِ والظلامِ،
ووَضَعْتَني في وسطِه، صِفْرَ اليَدَيْنِ، وأنت تضحَكُ من وراء حجاب الفراغِ، لأنّكَ أعطَيْتَني، أيضًا، واجبَ خَلْقِ سمائِكَ على الأرض.
لقد أعطيتَ الكلَّ، وأغدَقْتَ العطاءَ، ومنّي، أنا وحدي، تطلب وتستجدي.
وعندما تنحدرُ من عرشِكَ الرفيعِ، تأخذُ، في قلبِكَ، كلّ ما أقدّمُه لكَ بحبٍّ، وكلَّ ما أودَعتَه في يديَّ الصغيرَتَيْن،
تتقبّلُه في يدِكَ، وقد نما وتحوَّلَ.

تحوُّلٌ

عالَمُكَ هو ملكُكَ، يا مُعلِّمي،
وهو ثاوٍ، إلى الأبدِ، عندَ قدَمَيْكَ.
ولا متّسَعَ لديكَ للحاجةِ أو للرغبةِ،
فأنتَ الملءُ، وأنت الكمالُ.
ولذلكَ، في امتلائِكَ، تفتقرُ إلى فرحِكَ الخاصِّ،
ولذلكَ حوّلتَ ثرواتِكَ، الواحدةَ تلو الأُخرى، إلى ثرواتي،
فيكتمل الكنزُ من جديدٍ، ويتجدّدُ أبديًّا، من أجلِ معلِّمي.
ولذلكَ، تستعيدُ، يومًا بعد يومٍ، نهارَكَ المُشرِقَ.
في نظري الذي يعبدُه.
وهكذا، يومًا إثر يومٍ، تمتحنُ حبَّكَ في قلبي،
الذي يحوّلُ حُبِّي ذهبًا.

*

* *

ردٌّ

يا إلهي،

ألم أشتُمْكَ، مرَّةً، بل مرّاتٍ عديدةً؟

فقد جئتَني، صباحًا، صادِحًا بأناشيدِكَ،

وألقيتُ عليكَ الحجارةَ، من نافذتي،

لأنّكَ كنتَ تُقلقُ نوْمي.

وبعد لحظاتٍ، كنتَ تائهًا وسطَ حشدِ الجموعِ.

وعندَ الظهرِ، وافَيْتَ إلى بابي، متسوِّلاً، فقيرًا يكادُ يُرديهِ الجوعُ،

وقلتُ: يا لهذا الطارقِ الذي يُزعِجُ عملي! وطردتُكَ.

وعُدْتَ مساءً بهيئة ملاكِ الموتِ، حاملاً شعلةً مُبْهَمَةً وغريبةً، مثلَ كابوسٍ، فنعتُّكَ بالسارقِ والشرّيرِ والعدوِّ، وأوصدت بالمتاريسِ أبوابَ منزلي. فابتعدتَ، ومن ورائِكَ اهتزّت الظلماتُ، أيُّها الصديقُ المجهولُ.

أمن أجل ذلك كنتَ تأتيني؟ وكنتُ أنا أسُدُّ طريقَكَ، وأطردُكَ، وأجرحُكَ؟

ولطالما اقترضتُ منكَ مالاً، وأنا عازمٌ على ألاّ أردَّه لك، وكنتُ أُغلقُ، دونَكَ، بابي.

ثمَّ عندما سأرقُدُ في عُمقِ الليلِ، مُثْقَلاً بالترابِ، وحيدًا في الظلامِ،

وقد أُطفِئَتْ من حوْلي الأنوارُ كلُّها،

سيُفاجِئُني شعورٌ بوحدتي الرهيبةِ، بعيدًا عن ذاك الذي طردْتُه.

طيلةَ حياتي المديدةِ، كافحتُ بهوًى وصبرٍ، كي أُبقي، بالقرب منّي، حَفْنةً من الأعزّاءِ، وها قد ذابت وجوهُهُم في الظلمةِ.

وهوَ، الذي لم أبالِ به قطُّ، ولم أُحاولْ فهمَ كلامِهِ،

تجلّى، بوضوحٍ، لعينيَّ اللتَيْنِ جفاهُما الكرى،

وتراءى وجهُهُ، في مواجهةِ الليل، وسط عبيرِ الياسمين، والنجومِ الخرساء، وعلى كلِّ صدٍّ وجَّهتُه لقلبِه،

كانت تُجيبُ، في العتمةِ،

كلُّ النداءاتِ التي كان يبعثُ بها إلى قلبي القاسي.

*

* *

أُسكُبْ موسيقاكَ على أَوتار حياتي

بليغةً كانت مشقَّتي من أَجل ضبط أَوتاري، يا سيّدي،
فبادرْ، أَنتَ، بالإِنشاد، لعلّني أَنسى عنائي،
واجعلني أَشعر بجمال دوافع أَفعالكَ، في تلك الأَيّام الخالية من الرحمة.
إِنّ الليل المتداعي يتريَّثُ عند أَبوابي،
فدَعْهُ ينصرفُ مُنشدًا،
واسكُبْ قلبَكَ على أَوتار حياتي، يا سيّدي، موسيقى منهمرةً من النجوم.

*

* *

وعَدْتَني

وعدْتَني بأَن تقدِّمَ لي يداكَ نصيبي من هذا العالمِ. ولذلكَ يلتمعُ نورُكَ من خلال دموعي.

إِنّني أُحجمُ عن اتّباع الآخرين، مخافَةَ فقدانِ أَثرِكَ، حيثُ أَنتَ تنتظرُني، كي تكون دليلي، في منعطفٍ من طريقٍ.

سأُثابرُ، بعنادٍ، في انتهاج دربي، إلى أَن يدفعَكَ جنوني صوبَ بابي، فأَنت وعدتَني بأَنّ نصيبي من هذا العالَم سأتلقّاه من يَديْكَ.

*

* *

في مساءِ حياتي

أَعلمُ أَنّ الشمسَ ستبلّغُني وداعَها، في مساءِ يومٍ قاتمٍ من الأَيّام. وفيما تغوص أَيّامي في لجّة الليل، سيعزفُ الرعاة بمزاميرهم، في ظلّ أَشجارِ التين، وسترعى القطعانُ على ضفافِ السواقي،

وإِنّي أَرفع إليكَ هذا الدعاءَ، عساني أُدركُ، قبل رحيلي عن هذه الأَرض، علامَ هي أَخذتني بين ذراعَيْها،

وعلامَ حدَّثني صَمتُ لياليها عن النجومِ، وعلامَ ولَّدَ نورُ أَيّامها، بقُبلتِه، أَزهارَ فكري.

وليتني أَتريَّثُ، قبل رحيلي، على لازمة نشيدٍ أَخيرةٍ، مكملاً نَغَمَها،

وليتَ المصباحَ يُضاءُ كي أُشاهدَ وجهَكَ، وليتَ أَطواق الزهور تُضْفَرُ كي أُكلِّلَكَ بها.

*

* *

رئفتَ بالمتسوِّلِ

كانت بسمةُ فرحٍ تُضيءُ السماءَ، عندما أَلبستَ نفسي أَسمالاً رثَّةً وأَرسلتَها تستعطي عبرَ الدروبِ.

واستجدَتْ من بابٍ إلى بابٍ، ولطالما سُلِبتْ منها قصعةُ استعطائِها، كلّما شارفت على الامتلاء.

وفي مساء نهار نَصَبٍ، انتهت إلى أَمام سورِ قصرِكَ، رافعةً قصعتها الزريّةَ، فوافيْتَ، وأَمسكتَ بيدها، وأَجلستَها إلى جانبكَ، في بهاء مجدِكَ.

المرأةُ التي تجسَّدَ فيها الأبديُّ

وافَيْتَ، لحظةً، إلى جانبي، يا إلهي، فأشعرتَني بعظمةِ سرِّ المرأةِ التي تختلجُ في صميم قلبِ الخليقةِ.

إنّها هي التي لا تني تُعيدُ إلى اللّه دفقَ اللطفِ الغامرِ،

إنّها جمالُ الطبيعةِ دائمُ النداوةِ، وشبابُها الأبديُّ.

إنّها ترقُص في المياهِ الجاريةِ، وتُنشدُ في نورِ الصباحِ،

وبأمواجٍ متوثِّبةٍ تروي عطشَ الأرضِ.

فيها تجسَّدَ الأبديُّ، الوحيدُ، مُفَجِّرًا فرحًا، يستعصي على كلّ قيدٍ، فرحًا ينسابُ في ألمِ الحبِّ.

*

* *

العالَمُ لكَ

العالمُ لكَ، الآنَ وإلى الأبَدِ.

ولأنَّ لا رغباتٍ لدَيْكَ، يا مليكي،

لا توفِّرُ لكَ الثرواتُ سعادةً، ولكأنّها غيرُ موجودةٍ،

ولذلك، عبر الوقتِ الذي ينسابُ بطيئًا، تعطيني ما هو لكَ،

وتستعيدُ، بلا انقطاعٍ، احتلالَ ملكوتِكَ فيَّ.

ويوماً فيومًا، تطالبُ قلبي بشمسِكَ المشرقةِ،

وتجِدُ حبَّكَ منحوتًا في صورة حياتي.

حوارٌ

– لم تكنْ تعرفُ نفسَك، عندما كنتَ تقيمُ وحيدًا،

ولم تكنْ تبلّغُكَ أَيّةَ رسالةٍ الريحُ الجاريةُ من أَقرب شاطئٍ إلى أَبعد شاطئٍ.

وجئتُ فاستيْقَظْتَ، وأَزهرت السماءُ أَنوارًا.

وجَعَلْتَني أَتفتّحُ في الزهورِ، وأَرجحتَني في أَسِرَّةٍ من كلِّ شكلٍ،

كنتُ متواريًا في الموتِ، ووَجَدْتَني في الحياةِ.

جِئْتُ فاختلجَ قلبُكَ، وخفق للأَلمِ والفرحِ،

لامستَني، فكانت رعشةُ الحبِّ.

– ولكن في عينيَّ تسري لمعةُ خجلٍ، وقد اختلَجَ صدري بوثبةِ رعبٍ، وحجبَ الدمعُ وجهي، عندما غاب عنّي محيّاكَ.

– ومع ذلكَ، أَنا عالِمٌ بظمأ قلبكَ إلى رؤيتي، ظمإٍ لا يرتوي، ويصرخ عندَ بابي كلّما حطَّتْ عليه ضرباتُ الشمسِ المشرقةِ.

*

* *

إستَرْجِعْ، يا ربُّ، هذه القِلادةَ

هذه القِلادةُ الثمينةُ التي تطوِّقُ عنقي،

لا تُزَيِّنُني إلاّ لكي تعبثَ بي.

إنّها توجعُني كلّما طوَّقَتْني، وتخنقُني كلَّما جهدتُ في انتزاعِها.

إنّها تتشبَّثُ بعنقي، وتكتم أَناشيدي.

فلأُودعْها تقدمةً بين يديْكَ، يا ربُّ، فأَخلص.

إستَرْجِعْها، وبديلاً عنها، ارْبطْني بكَ بعقدةٍ ليِّنَةٍ،

فأَنا أَخجل بالمثول أَمامَكَ، وهذه القِلادةُ الثمينةُ في عنقي.

*

* *

الرحمةُ الإلهيّةُ

عندما دفَعَهم فرحُهم المأفونُ على جمع الوحلِ كي يلوِّثوا به ثوبَكَ، أيّها الرائعُ، هَلِعَ قلبي،

فهتفتُ نحوَكَ: «تناول عصا عقابِكَ، وأَدِّبْهم!».

وحطّ نورُ الصباح على تلك العيون التي ضرَّجَتْها بالحمرةِ عربدةُ الليل،

وتلقَّت حديقةُ الزَنابقِ البيضاءِ أنفاسَهم الحارقةَ؛ وراقبت النجومُ،

من أعماق الليلِ المقدَّس أعمالَ فُسْقِهم، فُسْقِ أُولئكَ الذين جمعوا حمأةً كي يدنِّسوا ثوبَكَ، أيّها الرائعُ.

وكانت قوسُ عدلكَ منصوبةً داخل حديقة الزهورِ، في ربيعِ تحييه زقزقاتُ العصافير، في ظلِّ الضفافِ حيث تجيب همساتُ الأشجار على وسوساتِ الأمواج.

لقد كانوا بلا رحمَةٍ في ضلالِهم، أيُّها المعبودُ.

كانوا يجوسونَ في الظلامِ كي ينتزعوا حُلَلَكَ البهيَّةَ، ويُزيِّنوا بها رغباتِهم. ولّما ضربوكَ وآلموكَ، فُجِعَ قلبي، وهتف نحوكَ: «تناول سيفكَ، أيُّها المعبودُ، وعاقبْهم».

وكان عدلُكَ ساهرًا،

فذرَّفْتَ على قِحَتِهم دموعَ أُمٍّ، وأخفى إيمانُ الحبِّ الخالدِ، طيّ جراحِه، أسلحةَ تمرُّدِهم.

وكان عقابُكَ أَلَمَ الحبِّ الذي لا ينامُ، وخَفَرَ الطُّهرِ، ودموعَ المفجوع في الليل، ولوَّن غفرانُكَ ضياءَ الصبحِ الشاحبِ.

وأَيُّها الرهيبُ، إِنّهم بدافع الجشع المتناهي، اقتحموا، ذاتَ ليلةٍ، حاجزَكَ. وحطّموا أَبواب كنوزِكَ، بُغيةَ سرقتها.

ولكنّ عبء سرقتهم أَعجَزَهُم عن حملِه، بل حتَّى عن زحزحتِه، وحينئذٍ هتفتُ نحوكَ: «اغفرْ لهم، أَيّها الرهيبُ».

وانتشَرَ غفرانُكَ عواصفَ رمت بهم أَرضًا، مُبَعْثِرَةً سرقاتِهم في الرغامِ وكان غفرانُكَ صاعقةً، ومطرَ دماءٍ، وشعاعَ شمس المغيب المضرَّج بحمرة العاصفةِ.

الفهرس

تمهيد ٥

١ – المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور ٧

٢ – صلواتُ شاعرٍ ٥٥

صدر للمؤلّف

أ – من منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان

مؤلّفات متفرّقة

١ – قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – ١٩٩٠

٢ – يسوع في إنجيله – ٢٠٠٦

٣ – يسوع في حياته – الجزء الأوّل – ٢٠٠٦

٤ – يسوع في حياته – الجزء الثاني – ٢٠٠٦

٥ – أمّ الله أمّنا – ٢٠٠٩

٦ – مختارات مريميّة – ٢٠٠٩

٧ – أمّ الرحمة – ٢٠١١

سلسلة النوابغ

١ – السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – ١٩٩٢

٢ – فرنسيس... أصلح كنيستي – ١٩٩٢ و ٢٠٠٨

٣ – صوت من لاصوت لهم: الأب پيير – ١٩٩٧

٤ – حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و ٢٠٠٣

٥ – أنا الأخت إيمّانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦ – سيرة المسيح (مترجم عن جيوڤانّي بايپيني) – ٢٠٠٣

٧ – بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٨ – جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٩ – البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني، نبيّ الرجاء لعصرنا – ٢٠١٥

سلسلة الظهورات

١ – ظهورات لورد – ٢٠١١

٢ – ظهورات فاطمة – ٢٠١١

٣ – ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١

٤ – ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١

٥ – ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢

٦ – ظهورات كيبـيهو وظهورات غوادالوپّي – ٢٠١٢

٧ – ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (الأيقونة العجائبيّة) وألفونس راتسبون – ٢٠١٢

٨ – ظهورات لوس وغيتـشڤاود – ٢٠١٢

٩ – لمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢

١٠ – الأمّ السماويّة تجوب العالم – ٢٠١٢

١١ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (الجزء الثاني) ٢٠١٣

١٢ – ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو ٢٠١٣

١٣ – ظهورات في فرنسا ٢٠١٣

سلسلة صفحات روحيّة

١ – أبانا – ٢٠٠٥

٢ – كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – ٢٠٠٧

٣ – العذراء في حياتنا ٢٠٠٥ (مترجم) – ٢٠٠٧

كتب مترجمة

١ – يد اللّه – ١٩٨٨ سلسلة الشهود

٢ – ثلاث عشرة قصّة – ١٩٩٠ سلسلة الوداع

٣ – أيدٍ ملطّخة بالدم – ١٩٩٥ سلسلة الوداع

٤ – اذكروا اللّه: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – ١٩٩٥

٥ – حدّثني عن الحبّ – (طبعة ثالثة) ٢٠٠٥ – سلسلة الشباب مستقبل الغد

ب – دور نشر أخرى

١ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) ١٩٨٤ و ٢٠٠٠

٢ – حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجي – دمشق) ١٩٩٨ و ٢٠٠٠

ظهر من سلسلة «صفحات روحيّة»

١ – م. يوسف الكلاّس:	على دروب الإنجيل
٢ – ماري – تريز دو ماليسي:	صلاة على مدى ١٥ يومًا...
٣ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ:	قصص تأمّليّة (١)
٤ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ:	قصص تأمّليّة (٢)
٥ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ:	قصص تأمّليّة (٣)
٦ – أ. غَردِيّ الدومنيكيّ/ أ. باسيليوس بريدي:	مقام الروح القدس في الحياة المسيحيّة
٧ – أ. جوزيف شريفرز/ جورج الريّس:	بذل الذات
٨ – أ. باسيليوس بريدي البولسيّ:	عظات في التطويبات ومريم العذراء
٩ – م. كيرلّس بسترس:	تأمّلات في إنجيل ربّنا يسوع المسيح
١٠ – هنري كافاريل/ جورج عازار:	الصلاة لقاء مع اللّه
١١ – أ. بيتر فان بريمن/ أ. وفيق نصري اليسوعيّ:	كالخبز الذي كُسِر
١٢ – أندريه لوفيه/ أ. الياس زحلاوي:	هروبي الأخير مع يسوع المسيح
١٣ – عادل تيودور خوري	مع يسوع المسيح في لقاءاته

١٤ – رينهارد لتمان/ عادل تيودور خوري: من حصاد المطالعة

١٥ – الخوري بولس الفغالي: إرفعوا الكِسَر

١٦ – كرت رومل/ حنّا شوملي: أبانا الذي في السماوات

١٧ – م. يوسف الكلاّس: من وحي الإنجيل

١٨ – م. سليم الصائغ: الصلاة بالروح والحقّ (١)

١٩ – م. سليم الصائغ: الصلاة بالروح والحقّ (٢)

٢٠ – هنري كافاريل/ أ. أنطوان نصر: «لا تخفْ أن تأخذ مريم زوجةً لك»

٢١ – م. سليم الصائغ: يسوع خبز الحياة (١)

٢٢ – م. سليم الصائغ: يسوع خبز الحياة (٢)

٢٣ – الكردينال مارتيني/ أ. مارون اللحّام: الله يكفيني

٢٤ – ترجمة المعهد الإكليريكيّ في بيت جالا: القراءة الربّانيّة

٢٥ – ترجمة المعهد الإكليريكيّ في بيت جالا: مقالات في الدعوة الكهنوتيّة والرهبانيّة

٢٦ – أديب مصلح: أَبانا...

٢٧ – الأب سهيل قاشا: كيف أعترف...؟

٢٨ – م. سليم الصائغ: دردشات مع يسوع (١)

٢٩ – م. سليم الصائغ: دردشات مع يسوع (٢)

٣٠ – طوني هاشم: اللصُّ التائب

٣١ – إيلوا لوكليرك/ الأب جرجس المارديني: الفقير الحكيم

٣٢ – طوني هاشم:	قال نيتشه: «مات اللّه» قلتُ: «حقًّا! إنّما قام»
٣٣ – م. يوسف الكلاّس:	رُوحُكَ الصَّالح يَهديني
٣٤ – الخوري أنطوان الدويهيّ:	علّمتني الحياة
٣٥ – جان غيتّون وجان جاك أنتييه / أديب مصلح:	كتاب الحكمة، والفضائل المستعادة
٣٦ – م. تونينو بلّو / أديب مصلح:	العذراء في حياتنا
٣٧ – جان سوليڤان / نسيب عون:	صبحيّات مسيرة روحيَّة
٣٨ – م. بطرس المعلّم:	من وحي الساعة
٣٩ – م. يوسف الكلاس:	أنا الراعي الصالح
٤٠ – الخوري بولس الفغالي:	قراءات في إنجيل يوحنّا
٤١ – الأب سايد قزحيّا:	السنة الليترجيّة البيزنطيّة
٤٢ – طوني هاشم:	إلى الإله المجهول
٤٣ – المطران بطرس المعلم	من وحي زيتون الجليل
٤٤ – المطران سليم الصايغ	آفاق البتوليّة المكرّسة
٤٥ – البابا بندكتوس السادس عشر	بولس الرسول
٤٦ – غبطة البطريرك غريغوريس الثالث لحام	بولس الدمشقيّ
٤٧ – أوليڤييه لوجاندر/حليم عبداللّه	أقنعة اللّه
٤٨ – الأب عادل تيودور خوري	الصوفانيّة رسالة إلى المسيحيّين في العالم

٤٩ – أوليڤييه لوجاندر	رسالة إلى خليفتَي يوحنا بولس الثاني
٥٠ – أندراوس رش	ميرنا أحداث الصوفانيّة
٥١ – المطران يوسف الكلاّس	بنورك نعاين النور
٥٢ – فيرجيل جورجيو/حليم عبدالله	مِنَ الساعة الخامسة والعشرين إلى الأبديّة
٥٣ – المطران بطرس المعلّم	من وحي الأحداث
٥٤ – الأب وفيق نصري	مارااثا
٥٥ – حليم عبدالله	صرخة الله
٥٦ – البابا بندكتوس السادس عشر	ربِّ، علِّمنا أن نصلّي
٥٧ – حليم عبدالله	مجازفة الله
٥٨ – الأب ريمون بكر	المرافقة الروحيّة
٥٩ – آمال عبدالله	نساء الإنجيل
٦٠ – الحيوانات، إن صلَّت	طوني هاشم

المطبعة البولسية
جونيه – لبنان
هاتف: ٠٩/٩١٢٥٩٣ – ٠٣/٣٥٧٣٥٣
isppress@inco.com.lb